امـرأة لا تكتفـي

امـرأة لا تكتفـي

روايـــــة

نرميـــن عِشـــرة

امــرأة لا تكتفــي

روايـــة

اسم الكاتبة: نرمين عِشرة
تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية
تصميم الغلاف: محمد سعد الشحات
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولى
رقم الإيداع: ١٤٠٩٦ / ٢٠١٨
طبعت بمطبعة الشروق

حقوق التوزيع

Facebook.com/arabiclibrary2017

إهـــــداء

إلى النفوس البشرية الضعيفة
إلى الهاربين من ذواتهم
إلى مريدي الكمال
إليك أنت.

(١)

في ليل يوم عاصف حالك الظلام، داهم السواد، يمحو ملامح الأبدان، ويخفي معالم الكون، تسير فتاة حسناء- يستفزها ريعان شبابها، ممشوقة القوام، طويلة، ذات عينين سوداويتين جذابتين- هائمة على وجهها، لا تعرف من أين أتت ولا إلى أين تمضي.

تواصل الفتاة السير وهي لا تكاد ترى- كأن سقف من سحاب دجن قد احتجز ضوء نجوم السماء عنها- حتى تصطدم بملامح أسد أمامها، تميزه بصعوبة، تحدّق فيه قليلًا لتكتشف أنه أسد برونزي لا يتحرك.

تهدأ حيرتها قليلًا بعد أن علمت أنها تقف على مشارف كوبري قصر النيل، المشدود كوتر العود بين ضفتي النيل في وسط القاهرة، تتشبث نظراتها بالأسد كأنها تستمد منه أمانًا يؤنس وحشتها في شوارع خلت من كل شيء عدا الظلام.

تتلقى لفحة جديدة من رياح باردة تبعثر شعرها الطويل المموج، وتدفعه إلى أعلى ليتساقط على عينيها، وتعبث بملابسها الخفيفة التي توشي بها وبجسدها النحيل، فتسمح لذراعيها بضم كل ما تستطيع لملمته من كيانها في محاولة فاشلة للشعور بالدفء.. دفء لا يضمن لعينيها المذعورتين الثبات والهدوء.

ترسل نظرات ترقب ممزوج بخوف مع سماع أي صوت أو رؤية وميض أي بياض محتمل في أي اتجاه قبل أن يضطرها شعاع قوي يسقط عليها فجأة من فوق سحابة تسارع الخطى نحوها، ويفاجؤها صوت امرأة عذب ينادي "حياة".

لا تعرف الفتاة من هي حياة، ولا من أين يأتي الصوت، إلا أنه يثير مشاعر الريبة والرعب في صدرها، ويدفعها للنظر حولها في كل مكان، للتعرف على مصدر الصوت إلا أنها لا تجد أي كائن سوى تلك الأسود الصامتة.

الصوت يشتد ويقترب ثم يقترب، كوحش يجبرها على الارتداد إلى الخلف، كأنها تهرب منه، إلا أنها تستسلم للبحث عن مصدر الصوت، الذي يجتذب نظراتها قهرًا إلى السماء، لتصاب بصدمة، تجبر عينيها المذعورة على الصمت والتحديق.

إنها امرأة ناصعة البياض، وجهها مضيء كشمس وليدة غير حارقة، تتمكن من تفصيل ملامحها الرقيقة، وعينيها الساحرة، ترتدي ملابس بيضاء فضفاضة.. ياللعجب إنها تجلس على سحابة كبيرة كالبساط تحت قدميها.

تجلس السيدة باسطة يديها إلى فتاة الأرض، وتدعوها: "أقبليّ علي يا حياة".

ترد الفتاة بصوت مرتبك: "مَن حياة؟".

- "أنتِ".

- "أنا لست حياة.. أنا شمس".

- "لا.. أنتِ مازلت حياة، وعندما تصلين إليّ فقط ستصبحين شمسًا".

تتجهم الفتاة، قائلة: "من أنتِ؟".

تكرر سيدة السحاب بصوت حاسم: "أقبلي عليّ".

لا تستطيع فتاة الأرض السيطرة على دموعها، فتتركها تسيل، وهي تردد: "من أنتِ؟".

وصوت امرأة السحاب يزداد علوًا وحسمًا: "أقبلي عليّ".

- "كيف أصعد و أنا بلا درج؟".

تنظر إليها امرأة السحاب نظرات صارمة لوّامة، وكأنها اقترفت إثمًا أو أذنبت في حقها، ثم تتحول عينيها المضيئة إلى حمرة تنبعث في السماء، ثم تدمع لتنهار السحابة من أسفلها وتنهال قطرات المطر على الأرض، متجهة نحو الفتاة من جميع الاتجاهات.

تعلو صرخات الفتاة المتزامنة مع ومضات البرق وصوت الرعد، الذي يقشعر له بدنها، وترتعش أطرافها، حتى تفقد السيطرة على أعصابها، وتسقط على الأرض.

تشعر شمس بيد حانية تتحسس وجهها و أنامل تتفقد نبضها المتسارع، وصوت يناديها في لطف، تفتح عينيها لترى أبيها صلاح –رجل في منتصف الخمسينات من عمره، طويل القامة، قمحي اللون، وسيم، شعره يغلب عليه البياض- يطمئنها، فتنظر حولها لتكتشف أنها في غرفتها نائمة على سريرها، فتسرع إلى حضن والدها وهي تبكي وترتجف من هول ما رأته.

"اهدأي صغيرتي.. لا شيء يدعو للخوف"، كلمات يوجهها صلاح لابنته بصوت منخفض ليحاول التهدئة من روعها، لترد عليه على وجل: "لم أعد أحتمل هذا الكابوس المخيف الذي يطاردني، أرجوك أبي.. فسّر لي ما يحدث".

تروي شمس الحلم لأبيها وهي نائمة على صدره، تتأمل الخطوط المتشابكة كأفكارها، فوق الجدران ذات اللون الأزرق الفاتح، وتجول بعينيها المرتعدة حجرتها التي اختارت تصميمها بعناية لتجعل السقف بلون السماء يتخلله بقع بيضاء كالسحب، والأرض بلون الرمال.

فور انتهائها من القص تنسحب من بين ذراعي والدها: "أنا تعبت، أرجوك أبتي خلصني من هذا الشبح".

صلاح: "اهدأي عزيزتي، أنتِ بخير.. لا داعي للقلق، إنه مجرد حلم".

شمس: "لا تقل حلمًا، إنه كابوس مزعج".

صلاح: "توترك هذا لا يفيد".

يعطيها قرصًا مهدئًا، ويطلب منها أن تهدأ ليواصلا الحديث.

صلاح: "حبيبتي.. اعتدت عليك صديقة قبل ابنة، لماذا لم تخبريني بهذا الحلم من قبل طالما يتكرر؟".

شمس: "ظننته أضغاث أحلام، ولكنه بات يتكرر ويزعجني".

صلاح: "يبدو أنك تخشين شيئًا ما وربما تخفين أمرًا عني، ولكن لن أضغط عليك صغيرتي، عندما تودين الحديث ستجديني صديقًا كما اعتدتِ".

شمس: "أرجوك أبي.. خلصني من هذا الكابوس".

صلاح: "عزيزتي حتى نتخلص من هذا الحلم لا بد أن نفسره ونعرف سببه، فربما تكون رسالة لك أو مشكلة تعانين منها".

تشرد شمس قليلًا، ثم تكتفي بنظرة بائسة.

يقترب صلاح من أذن ابنته، ويهمس لها: "صغيرتي.. إن كنت ترتابين أمرًا أخبريني حتى أساعدك، تحدثي إليّ كصديق".

ترد شمس في تذمر: "لا أخفي عنك شيئًا يا أبي".

صلاح: "أخبريني كيف حالك مع خطيبك؟".

شمس: "كل شيء على ما يرام، هو ينفذ لي كل طلباتي، ويفعل ما يستطيع لإسعادي".

صلاح: "ما أخبار لوحاتك الفنية؟ ومشروع المعرض؟".

شمس: "كل شيء يسير كما ينبغي".

صلاح: "حسنًا عزيزتي، لدي فكرة ربما تخرج تلك الطاقة السلبية من داخلك، وتبعد عنك شرور هذا الحلم".

تنظر إليه في تلهف: "ماهي أبي؟".

صلاح: "ارسمي ما ترين وأخرجي هذا الحلم من ذاتك وضعيه أمام عينك، حتى تتخلصين من تلك الطاقة السلبية وتحويلها إلى نجاح".

تنبهر شمس لتلك الفكرة، وترتسم بسمة النصر على وجهها، ثم تطبع قبلة على جبين أبيها: "أنت رائع حقًا".

تستفيق شمس وتستحم ثم تتناول الإفطار مع أبيها في صالة المنزل، وتتناول فنجان القهوة التي اعتادت عليه في الصباح، وبعدها تستأذن والدها لتدخل حجرتها وتبدأ في رسم لوحة (الحلم)، وتعكف أيامًا على رسمها حتى تنتهي منها.

تنظر إلى اللوحة، وتقول: "ياله من إبداع فني حقًا".

ثم تنظر إلى الساعة لتجدها التاسعة مساء.. "مازال هناك وقت حتى يأتي أبي، كم أنتظره بفارغ الصبر حتى يشاركني في الإحساس بالانتصار على هذا الكابوس".

تنتظر شمس أباها أمام شاشة التلفاز، حتى يأتي فتسرع إليه: "حمدًا لله على سلامتك يا دكتور".

صلاح: "سلمتِ لي، أرى البهجة في عينيك.. طمئنيني عليك".

شمس: "الحمد لله.. كل شيء على ما يرام".

صلاح: "ما أخبار اللوحة؟".

شمس: "لقد انتهيت منها أخيرًا، بمجرد أن رأيت الحلم أمام عيني أحسست أنه لم يعد يخيفني كما قلت".

صلاح: "رائع، إذن لقد استطعت إخراج الطاقة السلبية من داخلك".

شمس: "أريد أن تراها يا أبي".

صلاح: "طبعًا، أنا أتشوق لرؤياها، أريد أن أرى تلك السيدة التي تطاردك".

تتعلق شمس في ذراعه، وتقول: "هيا بنا يا أبتي إلى غرفتي المتواضعة".

يتبسم صلاح ويستسلم للمضي معها حتى الحجرة إلا أن معالم وجهه تتجمد بمجرد رؤيته اللوحة، وكأنه أصيب بشلل أو وقعت عليه صاعقة.

تنتبه شمس لهذا الشرود الواضح على وجه أبيها، فتقول له: "أبي.. هل أنت بخير؟".

لم يتحرك صلاح أو يلتفت إلى ما تقول، كأنه رحل إلى عالم آخر.

تكرر شمس مناداتها له عدة مرات حتى ينتبه لها، ويقول: "عذرًا بنيتي".

شمس: "أبي.. هل أنت بخير؟".

صلاح: "نعم".

شمس: "ماذا بك؟ ألم تعجبك اللوحة".

صلاح: "بلى، ولكن...".

شمس: "لكن ماذا يا أبي؟".

يتردد صلاح قبل أن يدير وجهه عنها: "لا شيء".

تتجه شمس أمامه وتنظر إليه: "ماذا بك يا أبي".

تنظر إلى عينيه قليلًا ثم تسأله: "أتعرف تلك السيدة؟".

صلاح بعد تردد: "نعم".

شمس: "من هي؟ وما علاقتها بي؟".

صلاح متوترًا: "لا أعرف، ولكنها كانت مريضة عندي منذ أكثر من ٢٠ عامًا".

شمس: "مريضة؟!".

صلاح: "نعم".

شمس: "وما علاقتها بي؟ ماذا تريد مني؟ شيء غريب حقًا".

صلاح: "أظن أنني فهمت الآن معنى الحلم، ولكن يبدو أنك تخفين عليّ أمرما".

شمس: "ماذا تقصد؟".

يتريث صلاح قليلًا، ثم يقول: "تلك السيدة تحاول إيصال رسالة معينة لك، هي تريد أن تطمئنك وتطمئن عليكِ، حتى لا تتجرعي نفس آلامها".

شمس: "لا أفهم شيئًا يا أبتي.. ما هو الألم الذي تخشى عليّ منه؟".

صلاح: "سأحكي لكِ صغيرتي كل شيء، ولكن دعيني الليلة أستريح من عناء العمل، ولنا لقاء الغد".

شمس: "حسنًا أبتي، سأكون من الصابرين، ولكن قل لي سلفًا مما كانت تعاني تلك السيدة المجهولة؟"

صلاح: "كانت تعاني من مرض اللذة".

شمس: "اللذة؟ وهل اللذة مرض؟"

صلاح: "أحيانا تصبح اللذة مرضًا له آلام عنيفة، خاصة إذا خرجت عن نهجها الطبيعي".

شمس: "لا أظن يا أبي أن تكون للذة آلام، كيف وهي الضد؟"

صلاح: "للأسف هذا الواقع الذي يجهله الكثيرون، فجميع اللذات المادية لها آلام أحيانًا تصاحبها وأحيانًا تلحقها، فمثلًا إذا تناولتِ طعام تحبينه يمنحك لذة ما ولكن إن أكثرت منه ستشعرين بألم، هكذا باقي اللذات، اللذة يا بنيتي نهايتها الألم، كما أن الألم نهايته اللذة، وهناك حكمة تشيكية تقول: اللذة والألم يرقدان فوق سريرواحد".

شمس: "غريبة! كنت أظن أن اللذة مضادة للألم".

"يبدو أنها تعيد قصة حياة مرة أخرى" يسر صلاح تلك الكلمات في نفسه، ولم يبدها لشمس، ويهمس لها: "حبيبتي هيا لتستريحي الآن، ولنستكمل حديثنا غدًا بإذن الله".

تتريث شمس قليلًا، وهي تتأمل في حديث أبيها الشائك، ولكنها سرعان ما تتغلب على فضولها، وتتجه نحو غرفتها، طابعة على جبين أبيها قبلة قبل النوم.

يشرد صلاح بعيدًا وكأنه يسترجع طيات الماضي الأليم، ثم يغمض عينيه ويقول في ذهنه: "لن أستطيع أن أرى مأساة حياة تتكرر مع ابنتي، لن أحتمل أن أراها تتألم، ولكن حتمًا ستمر بهذا الصراع بأمر طبيعتها البشرية التي ترفض إلا أن تخوض التجربة بنفسها وتحسم هي صراعها".

بينما تدخل شمس غرفتها وتمدد جسدها على السرير وتعبث في هاتفها، حتى يرن، فترد بصوت شديد اللهجة: "ألم أقل لك لا تحادثني ثانية؟!".

- نعم، ولكني لم أستطع ولديّ معلومات مهمة تخصك، أنا أخشى عليك من غيب ينتظرك وو اقع لا تدركينه.
- ماذا تقصد؟
- هناك أمر سيغير مجرى حياتك.. سأترك لكِ ظرفًا به تفاصيل عصر الغد في مكتبة الربيع، إن كنتِ تريدين أن تظلين مغفلة فلا تأخذيه.
- لن أخذه قبل أن تقول لي مَن أنت؟
- اطمئني أنا أعرفك جيدًا ولا أريد منك أي شيء سوى أن تعرفي الحقيقة، لأن أمرك يهمني وليس لأي غرض شخصي.
- إذن أغلق الهاتف ولا تتصل بي ثانية.
- سأعرفك بنفسي في الوقت المناسب.

- لا.. أراك غدًا في نفس المكان والزمان.

تنهي شمس المكالمة بعد أن أثارت حيرتها، وتركتها مشغولة الذهن، يتمنع عنها النوم، فما هذا الذي قد يغيّر مصيرها؟ ومن هذا الذي يحدثها دون أن يريد منها شيئًا؟ تحاول أن تتهرب من تلك التساؤلات إلا أنها تلاحقها وتعتري ذهنها المشوش المرتبك بين حلم ظنت أنها تخلصت منه وورقة تحمل مستقبل لا تعرفه.

تظل شمس تقلّب جسدها على الفراش كورقة في كتاب لتبحث عن طرف خيط السبات العميق الذي لم يكتب لها أن تهنأ به في تلك الليلة الغامضة، ومع أول غمضة عين تتذكر هذا الصوت الذي كان يحادثها لدقائق معدودة في الهاتف.. "أعرف هذا الصوت جيدًا.. إنه صوت الحلم.. سيدة السحاب".

- "لا لا.. يبدو أن الأصوات اختلطت على أذني".
- "حتما هناك علاقة بين الصوتين".
- "لا يجب أن أفكر في شيء الآن.. عليّ أن أنام".

تمر ساعات الليل عليها كسنوات عجاف تأبى أن تنتهي، وهي تنتظر شعاع الشمس الذي يمنحها الأمل والطمأنينة.

***

في صباح اليوم التالي، تستيقظ شمس كعادتها باكرًا دون أن تهنأ بنوم هادئ بلا تقطع، وهي تتغلب على هواجس القلق التي انتابتها بعد مكالمة أمس، ولكنها قررت أن تسرها في نفسها حتى تعرف حقيقة الأمر.

وحاولت أن تسيطر على ذهنها بالتفكير في حكاية حياة التي سيحكيها أبيها لها، وذهبت إلى المطبخ لتعد وجبة الفطار قبل أن توقظ أبيها من نومه

ليتناولها معها، وبعدها تحضر فنجانين من القهوة وتذهب إلى أبيها في مكتبه ليقص عليها قصة سيدة الحلم.

يقترب صلاح من ابنته ويضمها إليه، ويطبع على جبينها قبلة حانية عميقة، أراد بها أن يمتص أي ألم ويهدئ أي صراع، ثم يدعوها إلى الجلوس والإنصات إليه جيدًا حتى يقص عليها.

تغوص عين صلاح في الذكريات التي بدت تهاجمه في لحظة واحدة، ولكنه يتغلب عليها، ويعيد ترتيب الأحداث ليبدأ في قصها على صغيرته.

(٢)

لا يمكن أن يمحى هذا اليوم من ذاكرتي، عندما استدعوني في المستشفى لأصل على صوت أنثوي منهك: "لا أذكر شيئًا، لا أذكر حتى اسمي"، طرقت باب الحجرة ودخلت لأجد فتاة -في ريعان شبابها- مستلقاة على السرير، يبدو عليها الإنهاك والتعب، وجهها شاحب محاصر بشعرها الذابل كزهرة لم تسق منذ سنوات.

جسدها مغطى بغطاء أبيض لم يبدو منه سوى يدها اليسرى المحاطة بشاش أبيض، يقيدها حتى المرفق، بينما تنسدل أنبوبة المحلول إلى يدها اليمنى، التي تحمل أصابع رقيقة ناعمة تتدلى برفق خارج الغطاء، لتعكس استسلامها وخضوعها الداخلي.

يجلس جوارها شاب في منتصف الثلاثينات من عمره، طويل القامة، متوسط الحجم، علامات القلق والتوتر تعتري وجهه، عيناه بنية اللون، مرتبكة، نظراتها مرتعشة، تجول أركان الحجرة، ثم تعود إلى الفتاة لتكشف عن حالة من تأنيب الضمير.

اقتربت منها قليلًا، لأرى ملامح وجهها البريئة كأنها ولدت على التو، قلت لها: هل أنت بخير؟

- نعم.
- بمَ تشعرين؟
- لا أشعر بشيء، ولكني على ما يرام.
- ماذا حدث؟
- لا أتذكر أي شيء على الإطلاق.

نظرت إلى الشاب الذي يجلس جوارها، وسألته: "ما الأمر يا عزيزي؟".

- أنا لا أفهم شيئا على الإطلاق، لقد صدمتها بسيارتي دون قصد، هي كانت مسرعة جدًا، و أنا كنت مشغول الذهن، وما أبرئ نفسي، ولكني سرعان ما نقلتها إلى هنا، وأجرينا جميع الفحوصات، وكانت النتائج على ما يرام، ظللت أتتبعها حتى استفاقت، ولكني وجدتها تتأمل بي في دهشة، ولا تتذكر أي شيء.
- ربما لم ترك وقت الحادث فعلًا.

صمت الشاب برهة، وقال: لا، هي لم تتذكر أي شيء أثناء التحقيق، حتى اسمها، بحثنا في معطفها لم نجد أي أوراق رسمية.

- ألم يكن معها حقيبة؟
- لا، هي كانت تسير هائمة على وجهها، وبسرعة كبيرة جدًا، سبقت سرعتي في الضغط على "الفرامل".

طلبت منه أن يتركنا مفردنا، حتى أتيح لها الحديث بحرية.

خرج الشاب من الحجرة وأغلق الباب، فجلست على مقعده بالقرب من الفتاة، وقلت لها محاولًا طمأنتها: "عليك أن تهدأي قليلًا قبل أي شيء، ليس هناك ما يدعو للتوتر أو الخوف، أنتِ بخير".

نظرت إليّ في تمعن، ثم سألتني باندفاع: "هل أنا فقدت الذاكرة؟ أنا لا أتذكر شيئًا.. حتى اسمي".

- لا.. اطمئني.. أنتِ سليمة، ولكن قد يكون هناك بعض التوتر، أو حادث مؤلم.. أخبريني هل تذكرين شيئًا عن طفولتك؟

- لا أذكر أي شيء قبل أن أرى شمس اليوم، قالوا لي إنني أصبت في حادث، وأخبرني الطبيب أنه لم يسفرعنه سوى كسر بسيط في ذراعي، ولكني حقًا لا أتذكر أي شيء، سوى أنني أشتاق إلى الرسم والمشي، لا أشعر بأي شيء آخر.
- هل تشعرين بصداع؟ أو ألم في الرأس؟
- إطلاقًا، أشعر أنني كنت في نوم عميق أراح ذهني.

أخذت الفتاة نفسًا عميقًا ثم استكملت: "أنا قلقة، ولكن أشعر أنني ممتلئة بالأمل، بحاجة إلى الاستمتاع بالحياة، كأنني كنت في رحلة إلى الموت ثم عدت مشتاقة إلى متع الدنيا كلها، أشعر أنني طفلة بحاجة إلى اكتشاف الحياة من جديد".

فسرت ما قالته بأنها لا تريد العودة إلى حياتها الأولى، ولن تساعدني مطلقًا في تذكرها، بل ربما يؤثر ذلك عليها بالسلب، فقطعت نظري تمامًا عن محاولات الزج بها إلى استرجاع ما فقدته، لأنه ربما يهزّ ثقتها بي، وكل شيء سيأتي في أوانه.

قلت لها: "يبدو أن الصدمة كانت قوية لم يتقبلها عقلك، وقد يكون عقلك الباطن هو من دفعك أمام سيارة لينهي ألمك، وهنا توقف عن التفكير، فأنتِ مازلت على قيد الحياة، ولكن حياتك الماضية قد ماتت داخلك، ابتعدي عن القنوط وابدأي حياة جديدة".

- صدمة؟!!
- ربما، ليس لدي تفسير آخر، ولم أستطع سوى أن أشجعك على حياتك الجديدة.

- ولكن، هل سأبقى دائما بلا هوية هكذا لا أعرف من أنا؟
- قد تعود إليك حياتك بأسرها إذا زال سبب الصدمة، أنت وحدك تستطيعين مساعدة نفسك في ذلك.
- لا أريد أن أبذل جهدًا في التفكير، عليّ الاستمتاع بواقعي هذا، وحياتي الجديدة، لن أضيع وقتي.
- تدخرين وافرًا من الخبرة، وتستفيدين من تجاربك السابقك بلا شك، دون أن تتذكرينها، أنتِ لست بحاجة إلى طبيب، أنتِ على ما يرام، عليكِ الاستمتاع بالحياة من جديد.. وليكن اسمك حياة.
- الله.. اسم رائع، فأنا أحب الحياة.
- سأتركك تعيشين كما شئتي، ولكن عليّ إخبارك ببعض الأشياء لتعينك على رحلتك في الحياة الجديدة، فلكي تستمتعي بها يجب عليكِ أن تعلمي أن المتعة تتعارض مع الأنانية وحب الذات والنفور من الآخر، واعلمي أن الكون جميعه خلق لأجلك فاجعلي من حولك سعيدًا تصبك السعادة.. وسأنتظرك في أي وقت.

أعطيتها بطاقة تعريف تحمل معلومات الاتصال الخاص بي، وألقيت عليها السلام، وخرجت من الحجرة.

تنهدت الفتاة تنهيدة طويلة، ثم أغمضت عينيها لدقائق معدودة، حتى سمعت طرقات خافتة على باب الحجرة، دفعتها لفتح عينيها، والنظر تجاه الصوت، لترى الشاب بصحبة طبيب قصير القامة، ذو بشرية قمحاوية، يقترب منها، ويتحسس نبضات يدها اليسرى، ثم يطمئنها، قائلا: "لا داعي للقلق أنتِ بخير، والحادث لم يصبك سوى بكدمات بسيطة في يدك اليسرى،

ولكن يبدو أنك قد أُصبت ببعض الإرهاق، مع إهمال الطعام، وربما ضغوط نفسية".

ردت الفتاة بصوت أكثر حيوية: "أشكرك عزيزي، ولكن متى يمكنني مغادرة المستشفى؟".

- عليك الراحة بعض الوقت، عالأقل ستمكثين معنا الليلة، ولا تقلقي جميع المصاريف سددها الأستاذ أمير.

وأشار على الشاب الذي ما يزال ينظر باهتمام بالغ إليها، ويتمعن في ملامح وجهها البريء النقي.

نظرت إليه الفتاة، وقال: "أشكرك على كل ما فعلت لأجلي".

- لم أفعل شيئا سوى واجبي، إنني أشعر بمسؤولية عظيمة نحوك، خاصة بعد أن علمت أنني تسببت لكِ في فقدان ذاكرتك، وأعلم كم هو مؤلم ألا يتذكر الإنسان حتى اسمه، ولكن لربما يتمنى الكثير أن يكون في مكانك، فإن النسيان حقًا نعمة.

نظر إليه الطبيب في شفقة، وقال: "اطمئن، أنت لست السبب في نسيانها، هي مجرد أزمة نفسية".

مضي الطبيب خارج الغرفة، بينما واصل الشاب النظر إلى وجه حياة الملائكي، وبنبرات ناعمة رقيقة عرّف نفسه: "أنا أمير.. أعمل بالسياحة.. ٣٦ عامًا."

تنهدت الشابة وقالت بصوت خافت: "فرصة سعيدة".

شعر أمير بأن الوضع يستدعي أن يصمت بعض الشيء، فاكتفى بما قاله.

صمتت الفتاة برهة، ثم قالت على عجل: "لقد اخترت لي اسمًا".

أمير: "ما هو؟"

الفتاة: "اسمي حياة".

ابتسم أمير والبريق يملأ عينيه، قائلا: "ما أحلاها الحياة طالما تحمل اسمك".

ابتسمت حياة واسترخت قليلًا، ثم انتبهت إليه فجأة، وسألته: "ولكن هناك أمر مهم لم نفكر فيه".

أمير: "ما هو؟"

حياة: "لا أعرف إلى أين سأذهب بعد خروجي من المستشفى؟ أنا لا أعرف لي عنوانًا أو عملًا حتى أرتكز عليه".

أمير: "ليس هناك ما يدعو للقلق، يسعدني أن تشرفيني بضيافتي لك في شقتي المتواضعة".

أخذت حياة برهة من الوقت في التفكير، ثم أجابته: "اتفقنا".

أمير: "تيقني أنني سأكون عند حسن ظنك بي، و أقدر ثقتك الغالية، و أتحدث مع بعض معارفي لنبحث عن وظيفة مناسبة".

- أشكرك.
- حسنا، عليك أن ترتاحي ولا تفكرين في أي شيء.
- و أنت عليك الذهاب إلى عملك، وسأنتظرك صباح غد.
- أكثر ما يهمني الاطمئنان عليك عزيزتي.
- لن أكون مطمئنة البال و أنت تعطل مصالحك لأجلي، أرجوك اذهب إلى عملك، و أنا سأمكث للنوم.

- أنتِ أهم من العمل، ولكني سألبي رغبتك و أتركك للراحة، و آتي في الصباح الباكر.

ابتسمت حياة، ومضي أمير، بينما خلدت هي إلى سبات عميق مطمئنة النفس، صافية الذهن.

****

تسرع شمس في سؤال والدها: "هل حقا ستذهب معه إلى شقته؟"

صلاح: "سأخبرك بعد تناول الغداء".

تشرد شمس قليلا، فيسألها والدها: "ماذا بك صغيرتي؟".

ترد شمس: "ما أحلاه هذا الشعور الفطري الذي يغمر الإنسان في اللحظات الأولى له في الحياة، وهو لا يفكر في شيء سوى المتع، لا يشغله ضجيج الحياة، ولا ترهقه آلام الماضي، ربما تكون منتهى الراحة أن تصبح بلا ماضي، وبلا عادات أو تقاليد تقيد تصرفاتك، وتشغل ذهنك".

صلاح: "ربما، ولكنه شعور مؤقت عزيزتي، بعدها يتضاعف الألم، فعندما يسلّم الإنسان نفسه للمتع ويتناسى طبيعة الحياة يصبح هشًا أمام صدمات الو اقع".

شمس: "عذرا أبتي على مقاطعتك.. كل آذان صاغية".

(٣)

استيقظت حياة على صوت آذان الفجر العذب، وقعت كلماته المقدسة في أذنها لتهز كيانها شوقًا، كأنها كانت بحاجة إلى أن تستمع إلى تلك الكلمات، شعورغريب انتابها وغمرها بالسكينة والهدوء، كأن صوت يناديها "هيا.. استيقظي من سكونك، واستمتعي بجمال الطبيعة وروعة المشهد الذي ترسمه السماء في مياه النيل".

مست كلمات الآذان كيانها، دفعتها دون عمد إلى أن تحرك لسانها شغفًا، مرددة: "الله أكبر الله أكبر.. لا إله إلا الله"، تمالكت دموعها التي غلبتها وسقطت تأثرًا بكلمات اخترقت فؤادها الرقيق الأبيض، ومست أوتاره لتعزف لحنًا من الشوق، ومقطوعة موسيقية من العشق.

****

تقاطعه شمس: "هل تذكرت شيئًا؟"

صلاح: "لم تتذكر شيئًا عن حياتها السابقة، ولكنها كانت على يقين أنها طالما استمعت إلى تلك الكلمات الرصينة الآسرة، وأنها اشتاقت إليها وتلهفت كما يشتاق الصائم إلى لحظة الإفطار.. ليلة واحدة ربما فصلت بين حياتها الأولى والثانية لكن قلبها كان مشتاقًا إلى الآذان كأنه ودّعه منذ أعوام".

شمس: "غريبة؟!".

صلاح: "إنه شعور فطري، هي تشعر أن الله داخلها، تسعى إليه، لكنها لا تتذكر شيئًا عن علاقتها به قبل حياتها الثانية، كل ما تشعر به هو هذا الإحساس المرهف العميق بحنو الله عليها".

شمس: "حسنًا أبي، ماذا فعلت حياة بعد هذا الشعور؟".

يستكمل صلاح القص

****

نزعت حياة ذاك الغطاء الأبيض الثقيل من أعلى جسدها كأنها تنتزع حجرًا يقبض صدرها ويخنقها، كانت تتشوق إلى الحرية.. الحرية حتى من قيد بطانية لا تستطيع سوى الالتفاف حول جسدها لتدفئتها، ولكن أي دفء هذا، إنه دفء وهمي، فهي بحاجة إلى الدفء تحت ظلال السماء.

الحرية التي تسعى حياة إليها هي حرية مطلقة، تنطلق بها في الدنيا بلا قيود أو أحكام، ترسم هي ملامحها، تعاملها كأنها صفحة بيضاء تخطط فيها بريشتها ما تشاء، تريد أن تنظر إلى أعلى فلا تجد سقفًا يعيق طموحها، وإنما تريد سماءً تسع كل ما تريده وتتمناه، تريد أن تواجه الهواء البارد الذي ينتظر ميلاد الشمس لتدفئته.. إنها حرية تحت سقف السماء.

تغلبت حياة على عجز يديها اليسرى المقيدة بشاش، دون أن تأبه بها كثيرًا فهي لم تكن تشعر بألم، تفكيرها بأكمله كان منجذبًا إلى الهواء الطلق ومنظر السماء الخلاب في لحظة انبعاث الشمس، نهضت من فراشها، ووقفت مستندة بيدها اليمنى على أركان السرير، لتعتدل في وقفتها، بقامتها الطويلة، وجسدها الرشيق الممشوق، المتمايل مع نسمات الهواء كأوراق الشجر.

أزاحت حياة الستار من أمام زجاج الشرفة وخرجت لتقابل السماء مباشرة، نظرت بلهفة إليها لتتأمل لحظات طلوع الفجر، وتستمع إلى صوت زقزقة العصافير المبهجة، التفتت إلى الأشجار التي تحتضن العصافير، وتأملت مياه النيل وهي تتأهب لتلتقي أشعة الشمس الهادئة.

أخذت حياة نفسًا عميقًا لتشم رائحة الهواء الطلق، الممتزج برائحة مياه النيل، التي تنعش صدرها، وتبهج فؤادها، تلك الحياة العطرة التي أرادت أن تعيشها، بلا ألم وبلا دموع، كانت تود لو تستطيع أن تقتل شعور الشجن الذي كان يعترى صدرها.

انتظرت حياة لحظة ميلاد الشمس، لترى منظر اختلاط أشعتها الهادئة بالمياه العذبة، فيبعث بها الإشراقة والأمل، ويرسم على وجهها البسمة، ويزداد البريق في عينيها، وهي تفكر في صمت عما تكنه الأيام المقبلة بعد خروجها من المستشفى، إنها اعتبرتها بداية حياة، ظنت أنها وُلدت فقط يوم أن عادت الحياة بلا ذاكرة، فلم تعد بحاجة إلى التفكير في ماضي منسي، أو القلق من مستقبل غامض.

وضعت لنفسها خطة بأن تعمل على إسعاد نفسها، فلقد وجدت المسكن، وهو أول سبل الحياة، ولكنها بحاجة إلى أموال، ولم تعرف بعد من أين ستأتي به، ولكنها سرعان ما منعت نفسها عن التفكير حتى لا ترهق ذهنها.

****

شمس: عذرًا أبتي ولكن كيف ستذهب مع أمير وتعيش معه وهي لاتعرفه؟!

صلاح: لم تكن تفكر في شيء سوى سعادتها، لم يكن لديها ما تخسره، ولم يحكمها سوى غريزتها ورغبتها الطبيعية في البقاء، فلقد حررت نفسها من كل القيود والقواعد والقوانين في سبيل أن تعيش منطلقة تستمتع بالحياة.

شمس: أكمل يا أبي

***

وصل أمير برفقة الممرضة إلى الحجرة، لإنهاء إجراءات الخروج من المستشفى، فخرجت حياة من الشرفة لتستقبله.

أمير: "صباح الخير يا جميلتي".

تتبسم حياة قائلة: "صباح النور".

أمير: "ما شاء الله.. تبدين أكثر نضارة وحيوية".

حياة: "أشكرك.. متى سنرحل لقد سئمت من ذاك الحبس".

أمير: "حالًا إن شئتي".

حياة: "حسنًا.. هيا بنا".

يشير أمير إلى الممريضة، ويقول: "دعيها تستكمل إجراءاتها فحسب".

بعد دقائق، خرج أمير مع حياة من المستشفى، تفاجأت بسيارة زرقاء فخمة دعاها للركوب بها، وبالفعل استقلت السيارة معه، دون تحدث حتى وصلا إلى فيلا كبيرة، محاطة بحديقة واسعة ممتلئة بالأزهار البنفسج والحمراء.

علامات الدهشة سيطرت على معالم وجه حياة، فهي لم تكن تتوقع أن يكون ثريًا، تساؤلات عدة بدت في عينيها، سرعان ما تفهمها أمير، فقال لها: "أنا من عائلة غنية، كان والدي يمتلك شركات سياحية كبرى، وتوفى في حادث مع والدتي، وأنا في الخامسة والعشرين من عمري، وترك لي هذا الإرث الثقيل، بقدر ما هو نعمة فهو نقمة لأنه يسلبني وقتي، ويبقيني وحدي، للأسف لم يترك لي أبواي أخوة، لذا فأنا في قمة سعادتي لأنني لن أكون وحيدًا بعد الآن".

دخلا الفيلا، وما زالت حياة تتأمل هذا النعيم، من الشجر والخضر، والباب العملاق، والديكور المبدع، ذو الألوان المنسقة المدرجة بين درجات اللون السماوي الذي يطفي البهجة، ويشير إلى الجدية، نظرت إلى الخادمات الجميلات المرتديات اللون الأبيض المرصع بالأزرق، وبداخلها أمل تجاه المستقبل، فكرت لو أن لها حق في امتلاك كل هذا والتصرف فيه كيفما تشاء.

ولكن أمير لم يدعها تطيل الانتظار، فسرعان ما رد عليها: "كل هذا يصبح من الآن ملكك، كل من بالبيت يعمل لديك، أرجو أن تقبلي مني ذلك، واختاري ما يناسبك، وقرري ما تشائين في كل ما يتعلق بالمنزل".

- أشكرك، ولكن أين غرفتي؟
- اختاري ما تشائين، وسأرسل لك أحد السائقين بسيارة خاصة بيك، حتى تشتري كل ما تحتاجين إليه.
- يبدو أن الله يحبني لأنه أوقفنى أمام سيارتك.
- أنت تستحقين الحب حقًا.
- أشكرك عزيزي.

صعدت حياة درجات السلم بصحبة أمير إلى الطابق الثاني، حيث الحجرات، المتقابلة، وقف عند إحدى الغرف، وقال: "أنا أختار لك هذي لتكوني مقابلة لحجرتي، أريدك قريبة مني".

ابتسمت حياة، وقالت: "وهو كذلك".

فتحت حياة الباب فوجدت حجرة واسعة، ذات ديكور مبهج، وخطوط متشابكة تعتري الجدران ذات اللون الأزرق الفاتح، ونقوشات بسيطة تتخلل السقف الأبيض، تلك الألوان الطبيعية بعثت في نفسها الهدوء والراحة.

تأملت حياة في السرير الكبير الموازي للباب، المغطى باللون الأزرق، على جانبيه منضدتين صغيرتين تحملان "أباجورة" بمصابيح صفراء ذات إضاءة خافتة، على يمين الحجرة نافذة تشغل مساحة غير صغيرة جوارها لأسفل مكتب، وعلى الجانب الآخر دولاب خشبي، جواره مرآة كبيرة.

أطالت حياة النظر إلى المرآة، كأنها لم تروجهها منذ فترة، ثم التفتت إلى أمير: "يبدو أنك تحب اللون الأزرق، يقولون إنه يدل على الجدية، لكني أحبه لأنه لون الطبيعة".

أمير: "نعم، كم أعشق هذا اللون، وربما يكون دلالته صحيحة، فلقد علمني العمل مبكرًا الجدية، فأنا أدير مجموعة شركات منذ سن مبكر وكان عليّ أن أتحمل مسئولية كل هذا بمفردي دون أي معاون أو مرشد".

تجاهلت حياة كلامه، فهي لم تكن تأبه سوى بهذا العز الذي تريد أن تستمتع به، عاودت النظر إلى المرآة لتواصل التأمل في وجهها، فقطع أمير تأملها: "عليّ أن أرحل، وسأرسل لكِ السائق بمجرد وصولي، لتشتري ما تشائين".

ابتسمت حياة، ونظرت بإعجاب إليه، قائلة: "شكرًا على ما تقدمه لي، اذهب إلى عملك، أعانك الله عليه".

استأذن أمير وخرج من الحجرة، بينما استأنفت هي النظر إلى ذاتها بالمرآة: "يا لها من حياة جيدة، الحمد لله أنه رزقني بهذا الرجل الذي جعلني أعيش بهذا القصر الكبير الأنيق، علّه حسن حظ أن أنعم بتلك الخيرات، وأطمئن على مسكني وأكلي ولبسي وأسد احتياجاتي"، تحسست وجهها الأملس البريء، ودعت البسمة تتوغل في كل ثناياها، ثم قبلت نفسها في المرآة.

أعادت حياة جولتها البصرية في الحجرة، ثم مددت جسدها على السرير، وأغمضت عينيها لبضع دقائق، حتى أتت إحدى الخادمات وأخبرتها: "الباشا أرسل إلى حضرتك هاتفًا محمولًا مع السائق، ويريد التحدث إليك".

أخذت حياة الهاتف وردت عليه: "ليس هناك كلمات تعبر عن سعادتي بك، وامتناني إليك".

- لقد خلقت من أجل إسعادك، و أنا من أمتن لك لأنك وثقتي بي وكنتِ في حياتي المملة من دونك.
- رائع أنت.
- دعينا من هذا وهيا استعدي لتشتري كل ما تحتاجين إليه، السائق ينتظرك ومعه بطاقة فيزا من أجلك.
- حسنًا.

ذهبت حياة لشراء كل ما يلزمها من الملابس وأدوات التجميل و أنواع الشيكولاتة التي تحبها، وعندما عادت إلى المنزل وجدت الغداء جاهزًا، ولكنها أرادت انتظار أمير لتأكل معه، اتصلت به ليخبرها أن لديه عدة مهام عليه إنجازها، فقالت بامتعاض: "حسنًا، ربنا يوفقك، سأنتظرك على العشاء".

أمير على عجل: "حسنًا، أستأذنك".

تناولت حياة الغداء بمفردها، ولكنها تلذذت بطعم المأكولات، تذوقت الطعام كأنها أول مرة تتعرف عليه، وتتمعن فيه، وجبات شهية خطفت ذهنها، وشغلت وجدانها.

انتهت حياة من تناول الطعام، ودخلت إلى المطبخ لتفاجئ الخادمات، اللاتي توقعن أن تلقي عليهن تعليماتها وإرشاداتها، إلا أنها طلبت منهن أن تعرف أماكن الخامات الغذائية، خاصة القهوة والسكر، وبدأت تعد لنفسها فنجانًا، وهي تمزح معهن.

فور انتهائها من إعداد فنجان القهوة، صعدت إلى حجرتها وهي تفكر في خطة لتستمتع بتلك النعم، جلست على مكتبها، وتفحصته فوجدت لاب توب، فتحته وشرعت في التعرف على ما به من ملفات، حتى وجدت أغاني لأم

كلثوم، فاختارت أغنية "أنت عمري" التي ترخي أعصابها، تذكرتها جيدًا كأنها لم تفقد الذاكرة قط.

مجرد معرفتها أنها لم تفقد مهاراتها وقدرتها بعث في نفسها البهجة والأمل، وأشعرها أنها محظوظة حقًا، فبرغم أنها بدأت حياة جديدة إلا أنها ما زالت تكتسب خبرات الحياة السابقة، لذا فهي وجدت أن ذلك كفيل بإسعادها، لأن الله وهبها نعمتين من النادر اجتماعهما، أن تولد من جديد ولديها خبرة حياة كاملة مسبقة.

تصفحت الإنترنت أنشأت بريد إلكتروني خاص بها، وحساب على موقع التواصل الاجتماعي فيسبوك، واشتركت في عدة مجموعات متخصصة في الرحلات والتنزه والفن والرسم، فقد كانت تتشوق إلى الإمساك بالفرشاة.

لم تطل في المكوث أمام اللاب، فسرعان ما أغلقته وذهبت لتستريح على الفراش، مددت جسدها ونظرت طويلًا إلى النقوشات المرسومة على سقف الحجرة، تعمقت في تفاصيل اللون الأبيض الذي يمس كيانها، ويعكس صفاء قلبها، وسرحت في مستقبلها المجهول.

كسر أمير حبل أفكارها بطرقاته على باب الحجرة، ودخوله بعد سماحها له، ألقي عليها السلام، ثم دعاها لتناول العشاء معها، فهو كان يشتهي أكل الجبن والزبادي قبل النوم، جلسا سويًا على منضدة الطعام، ولكنه أكل مسرعًا كأنه على موعد حار وعاجل مع النوم، بينما تركها تنظر باندهاش فكم كانت بحاجة إلى الحديث معه.

لم يأبه أمير بنظراتها وشعورها- الذي توغله الريبة من صمته – ولم ينظر هل هي انتهت من طعامها أم لا؟ ولكن أسرع إلى الاستئذان ليذهب إلى النوم، بينما جلست هي لمشاهدة التلفاز في صالة الدور الأول، وكأنها تستأنس بالعاملين في الفيلا.

مرت الأيام على هذا الحال، حتى شعرت بالملل، فهي كانت تنعم بأفضل الأكلات وترتدي أرقى الملابس، لكنها شعرت بأن شيئًا ينقصها، شعرت أنها بحاجة إلى إثبات ذاتها والعمل، نظرت إلى يدها المقيدة بشاش أبيض، أرادت أن تذهب إلى المستشفى لتطمئن على يدها لقد مضي ما يزيد عن أسبوعين.

أخبرت أمير بذلك، فأرسل لها السائق ليصطحبها إلى المستشفى.

فور دخولها إلى المستشفى قابلتني، وأخبرتني أنها بحاجة إلى الحديث معي، ولكنها تريد أولًا فك القيد الذي يحيط بذراعها، اصطحبتها إلى الطبيب المتخصص الذي حررها من هذا الرباط، وقصت عليّ كل ما تشعر به.

شعرت أن داخلها شيء يحزنها، قلت لها: "أنت لست على ما يرام".

تبسمت حياة، وقالت: "بالفعل أنا لست على ما يرام، ربما أحيا حياة أكثر مما أرغب، لي ما أشاء من متع، ولكن أشعر أن شيئًا ما ينقصني، أنا آكل ما أشاء وأشرب كما أشاء، وأرتدي ما أشاء من الملابس، و أنعم بالعيش في بيت فخم، ولكن..".

قاطعتها: "أنت بحاجة إلى إثبات وجودك، بحاجة إلى إخراج تلك الطاقة الهائلة التي بداخلك، تحتاجين إلى السعادة، لم تعدي تستطيعين تقييد رغباتك في الانطلاق نحو طموحك غير المحدود، تتمنين لو تصلين للشمس".

- حقًا
- مازلت تشعرين أنك غير موجودة بالحياة، بحاجة إلى العمل، ويبدو أيضا أنك بحاجة إلى بعض المشاعر، ولكن قبل ذلك عليك استخراج أوراق رسمية لتثبتي وجودك بالحياة إن لم تكوني فعلتي.

تبسمت حياة خجلا: "ربما هو كذلك".

- إذن، ما يمنعك، امضي سريعا في خطوات نحو العمل، عليك أن تحددي هدفك أولا، ثم تخططي للوصول إليه.
- أشعر أنني أهوى الرسم والفن التشكيلي.
- أعتقد أن الأمر هينًا، أنت الآن حرة طلقة، اقتنى ما تريدين من الفرشاة والأوراق والألوان، و أبدعي، و أتمنى أن تدعوني إلى معرضك ال....

قاطعته قائلة: "ولكني أريد أن أحضر معارض لأتعلم، لا تنسى أنني جديدة في الحياة".

- مو اقع التواصل الاجتماعي ستسهل عليك الأمر، تابعي مواعيد المعارض واذهبي، لا تضيعي وقتك، واعلمي أنه قد يواجهك بعض العقبات لا تكترثي بها طويلًا وتذكري دائما هدفك، فلا تتركي جهدك يذهب هباء فيما لا يفيد.
- شكرًا عزيزي، أنا أحتفظ بالكارت الخاص بك وسأتواصل معك قريبًا.
- و أنا سأنتظرك.

ودعتني حياة و انطلقت إلى سيارة أمير استقلتها وعادت إلى المنزل، و انتظرته لتناول العشاء، تحدثت إليه: "ذهبت إلى المستشفى والطبيب أخبرني أنني على مايرام".

- حمدًا لله على ذلك.
- ولكن أشعر أن شيئًا ما ينقصني.

أمير متلهفًا: "ما هو؟".

- أريد أن أعمل، أعلم أن الموضوع صعب لأنني لا أمتلك بطاقة هوية شخصية، لكني حقًا أشعر بملل.
- ليس هناك مشكلة، تستطيعين العمل معي.

انتظرت حياة برهة من الوقت، ثم ردت: "أشعر أنني لا أحب هذا المجال، قد أكون بحاجة إلى الخروج والانطلاق، ولكني أخشى الخروج مفردي و أنا دون بطاقة هوية".

- حسنًا، لي علاقاتي التي ستساعدنا في استخراج بطاقة لك، لا تقلقي ما دمت أنا معك عزيزتي.
- أنت حياتي بأكملها ولست أماني وسندي فقط.

تبسم أمير وطبع على جبينها قبلة هادئة.

أثارت تلك القبلة الهدوء والسكينة في نفسها وكأنها كانت بحاجة إليها، فهي كانت تنعم بالكثير من النعم من المأكل والملابس وكل ما تشتهيه، ولكنها افتقدت هذا الشعور بالاهتمام والعطف، أرادت الظهور إلى المجتمع و إثبات ذاتها، أرادت الشعور بأنها تثير إعجاب غيرها، وأنها مرغوب بها، وّدت أن تخرج طاقتها في عمل.

أمسك أمير يدها وصعدا سويًا إلى الدور الثاني، وعندما أوصلها إلى حجرتها الموازية لحجرته، فتح لها الباب، ثم انطلق إلى النوم.

مددت حياة جسدها على السرير وتأملت في خطوط السقف المتداخلة، لتسرح بعيدًا حيث الخضرة والهواء الطلق، كانت تبغي فرد ذراعيها والارتماء في أحضان الطبيعة الخلابة، أرادت أن تشعر بأحاسيس دافئة، مثل أن

تعانق رجلًا، ولكن ليس أمير، فهي تشعر تجاهه بالامتنان لكن لم تشعر لحظة به كرجل، حتى تلك القبلة التي طبعها على جبينها لم تشعر سوى أنها من أخ.

****

شمس: "وكيف لا تحب هذا الرجل الثري؟ أظن أنه فتى أحلام أي فتاة".

صلاح: "لا يا صغيرتي، ليس كل شيء يشترى بالمال، فالسعادة والحب ليس لهما ثمن".

شمس: "حسنًا، ولكن لماذا وضعته في منزلة الأخ ولم تعط نفسها فرصة في الشعور به؟".

صلاح: "نحن نقابل أشخاصًا كثيرين، ولكن قلوبنا لا تنجذب سوى لرجل واحد، وهكذا أجسادنا لا تنجذب سوى لمن يستطيع أن ينزعها من براثن التفكير، ويختطفها إلى أحضان الطبيعة، ليتوحدا، ويتحول الألم إلى لذة".

تنهض شمس لتعد أطباق المكرونة الشهية بالصوص الأبيض الممتزجة بقطع الدجاج، والسلطة التي عوّدها أبوها على تناولها مع الطعام، وتضعها على المائدة لتنادي أباها ويجلسان سويًا يتناولان الطعام في صمت.

لم يستطع هذا الهدوء أن يسيطر على ذهن شمس المشوش بأفكار متناثرة، بين قصة سيدة ترسل لها رسالة عبر المنام، وبين هاتف مجهول يغير حياتها.

ينتبه صلاح إلى هذا الشرود: "عزيزتي سأذهب إلى العيادة بعد الغداء ولنكمل القصة مساءً".

- "حسنا أبتي.. أنا أيضًا لدي موعد عقب الغداء.. ونلتقى على العشاء".
- "حسنًا بنيتي".
- "أبتي".
- "نعم".
- "لا تتأخر سأنتظرك على العشاء".

ببسمة ناعمة: "لا أستطيع التأخر عنك.. سأعود في الموعد".

ينهيان غداءهما وتستعد شمس لملاقاة هذا السر الخفي الذي أرهق ذهنها ليلة كاملة، ومازال يطفو على تفكيرها بين لحظة وأخرى، وقد اقترب الوقت على كشف هذا السر، ارتدت ملابسها على عجل، وانطلقت نحو المكتبة لملاقاة صاحب السر.

لم تكن تلك المكتبة بعيدة عن منزلها ولم يستغرق الطريق سوى دقائق معدودة تخطتها شمس بخطوات مهرولة وكأنها تسابق الزمن لتلحق بقطار قد أوشك على الإقلاع، حتى وجدت نفسها أمام المكتبة فوقفت تنتظر صاحب السر وظلت تتلفت حولها كثيرا حتى وقعت عينيها على صاحب المكتبة وهو ينظر إليها بريبة فاتخذت جانبا تقف فيه، وأخرجت هاتفها المحمول للتحدث إلى الرجل المنتظر فإذ بطفل صغير يبدو في الثامنة من عمره يلقي في يديها ظرف أبيض عريض ويجري مسرعًا إلى الجانب الآخر من الطرق حتى يختفي من أمام عينيها التي كانت تتبعه.

تحركت شمس مسرعة في اتجاه هذا الطفل لكن لم تجده، أطلقت نظراتها في الشوارع الجانبية لتبحث عنه إلا أن محاولاتها تلك باءت بالفشل، فقد اختفى الطفل تماما، ولم يبق أمامها سوى أن تعود إلى منزلها لتفتح الظرف وتجد ما به.

حولت شمس طريقها لتعود إلى منزلها بخطوات بطيئة يغلب عليها اليأس، كانت تفكر في هذا الصبي الذي فاجأها وشل تفكيرها للحظات جعلتها لا تستطيع أن تتحرك لتلحق به وتعرف من هو.

فور وصولها المنزل، اخرجت هاتفها وحاولت الاتصال بالرقم وجدته مغلقا، ففتحت الظرف لتجد به أسطوانة "سي دي" وورقة مكتوب فيها: "أعتذر لك كثيرا عن عدم حضوري في الموعد المتفق عليه لظروف خارج إرادتي".

تنهض شمس مسرعة لتفتح اللاب وتضع الأسطوانة به لترى السر الذي قد يغير حياتها، تتعجل التحميل وكأنها تنتظر لساعات، ولكنها تفاجأ بأن العجلة لا تفيد فالملف لا يمكن فتحه، لم تفقد الأمل وتستمر في المحاولات مرات ومرات، حتى تستمتع إلى صوت مفاتيح أبيها وهو يفتح باب الشقة، فتنهض مسرعة لإعداد العشاء.

وبعد تناولهما العشاء في هدوء كعادتهما يصطحبها أبيها لمكتبه لاستكمال حكاية حياة.

(٤)

استيقظت حياة كعادتها على صوت آذان الفجر يناديها أن تستيقظ وتفتح نافذة غرفتها لتطل عليها الشمس، وتشاهد لحظة ميلاد يوم جديد، كانت قمة متعتها أن تشاهد لحظة ميلاد الحياة كل يوم، لأنها كانت ترى نفسها في تلك الشمس التي تولد لتبعث الطاقة والحيوية في النفوس ثم تغرب لتثير داخلنا الشجن، كانت تقنط عليها لأنها تعيش حياة كاملة في يوم واحد، تراها محظوظة لأن جميع البشر ينتظرونها ويربطون بها حياتهم، بينما هي محبوسة بين أربعة جدران.

ما زال قلبها يرتجف خشوعًا وهو يخضع إلى كلمات الآذان، نطق لسانها دون إرادتها "يا الله"، نهضت من فراشها واتجهت إلى نافذة الغرفة، فتحتها وتأملت السماء، وفردت ذراعيها لتتحرر في الهواء الطلق، وتنال منه ما يكفي لإنعاش صدرها، أخذت نفسًا عميقًا، ثم أخذتها قدميها إلى الحمام لتقف أمام المرآة التي تعلو الحوض، واختطفتها يداها لتفتح صنبور المياه وتسمي بالله لتغسل وجهها ويديها حتى المرفقين، ثم تمسح على شعرها وقدميها.

عادت إلى غرفتها واتجهت نحو القبلة، التي استدلت عليها من بوصلة ضمن ديكور مكتبها، وصلت الفجر، دون أن تعرف ماذا دفعها لذلك، ولكن يبدو أنها أجبرت بوازع داخلها، وربما بفعل غريزة العبودية التي تقبع داخل كل منا.

بعد إتمام الصلاة، ازدادت بهجتها وحماستها إلى الانطلاق في يومها، فنزلت إلى المطبخ لتعد فنجانًا من القهوة، قبل أن يستيقظ أحدًا من المقيمين بالمنزل، إلا أنها تفاجأت بإحدى الخادمات، بادرتها بالحديث: "صباح الخير".

- صباح النور سيدتي.
- اسمي حياة.
- أعلم حياة هانم.
- لا داعي للألقاب، فنحن متقاربتان في السن.
- العفو يا هانم، إن سمعني أمير بيه سيطردني من رحمته.
- لماذا؟
- تعليمات الباشا، لا يجوز الجدل فيها.

تومئ حياة رأسها وهي تتأمل مغزى هذا الكلام الذي يعكس هيمنة وديكتاتورية، ثم تسألها: "منذ متى و أنت تعملين هنا؟".

- سنوات طويلة، نحن فريق طلبنا أمير باشا من شركة للتوظيف، ومنحنا دورات تدريبة في الطهي والنظافة والتعامل.
- هل أنتِ سعيدة بالعمل مع أمير أم هناك أشياء تؤرقك؟
- لا مطلقًا، العمل هنا لا بأس به، رو اتبنا جيدة، ومنظمة، ولكن الخطأ الصغير نحاسب عليه، فأمير بيه منظم ودقيق جدًا.
- أتحدث عن المعاملة.
- نحن لا ننظر إلى المعاملة، نحن خادمات ليس إلا.

نظرت إليها حياة طالبة المزيد من التفاصيل.

الخادمة على مضض: "هو جاد جدًا، أحيانًا لا يقدر شعورنا، أو مرضنا، ولكن كأي قطاع خاص، الراتب نظير العمل، لا مجال للإنسانيات، عندما نمرض علينا أن نتقاعد ونترك العمل حتى لا نصبح عبئًا".

صمتت حياة وشعرت بالضيق كأنها تلقت طعنة في صدرها، دفعت يدها لتتحسس كتف الخادمة، وتواسيها.

بعد أن أنهت حياة القهوة، ذهبت إلى المطبخ لتعرب للخادمات عن رغبتها في إعداد الفطار أو المشاركة فيه، رحبت بها الخادمات بشدة، وبدأت في التعرف على أماكن الخامات الغذائية، وهي تمزح معهن بين الحين والآخر، وتعالى صوت ضحكاتهن، حتى أتي أمير وعلامات الغضب تغطي عينيه، وقال متذمرًا: "صوتكن عالي جدًا....".

قاطعته اصطدام نظراته بوجود حياة بينهن، وتساءل متعجبًا: "حياة.. ماذا تفعلين هنا؟ هل قصرت إحداهن في خدمتك؟".

حياة: "لا، على الإطلاق ولكني أردت أن أجدد نشاطي".

طلب منها أمير أن تذهب معه لأمر هام.

تصرفات أمير أثارت داخلها الريبة، فهي تعلم أنها لا تشعر به كرجل، ولكن اليوم تشعر أنه بدأ يسقط من نظرها كإنسان، فمن الصعب أن ترى الرجل الذي أنقذها ومنحها حياة بلا مقابل، يقسو على إناث لا ذنب لهن سوى غضب الحياة، وسخط القدر.

ذهبت حياة معه، وجلست على منضدة في الحديقة لتناول الإفطار، هي ما تزال شاردة بذهنها بعيدًا عنه، أعادها إلى الواقع طرقات أنامله على يديها: "حبيبتي.. ماذا يأخذك مني؟".

حياة بابتسامة غير راضية: "معك حبيبي.. لا شيء، أشعر بالملل فحسب".

أمير: "لا تقلقي يا حبيبتي سأستخرج لك بطاقة في أسرع وقت، ولكن عندي رجاء منك".

حياة: "ماذا؟".

أمير: "لا يجب أن تختلطي كثيرًا بالخادمات، فيجب أن يكون هناك حاجزًا بيننا وبينهم، لأن تلك الطبقة عندما تقترب منا تعتقد أن لها الحق في أن تحتل أماكننا، فاتقي شر اللئيم إذا أكرمته".

استمعت حياة إليه، وازدادت قناعتها بأنها أمام كائن يحمل فكر متعفن، ليس كما اعتقدت أنه إنسان يحنو على غيره دون نظر إلى عرقهم أو ماهيتهم كما فعل معها، اكتشفت الجانب المظلم من شخصيته، لكن لا سبيل لها إلى التفكير، فهي كانت تحتاج إليه وإلى تلك الحياة التي تحياها معه.

ردت بعد برهة من الوقت: "حسنًا، ولكن أريد أن أسالك سؤالًا".

أمير: "بالطبع حبيبتي".

حياة: "أنت لا تعرف عني شيئًا.. لماذا فعلت معي كل هذا؟ اصطحبتني إلى المستشفى وانتظرت شفائي، ولم تكتف بذلك بل منحتني حياة جديدة تحمل الرفاهية والرغد.. ألم تفكر للحظة أنني ربما أكون من طبقة متوسطة أو دانية عنك؟".

ابتسم أمير، وأجاب على عجل: "بالطبع لا يا حبيبتي فأنا أعجبت بك قبل الحادث، وكنت تبدين راقية، مظهرك.. هيئتك.. مشيتك.. ملابسك.. كل شيء.. لا تقلقي عزيزتي.. فأنتِ الآن سيدة القصر.. لا تراجع".

ابتسمت حياة، وبداخلها نار موقوتة، لم تكن تعرف كيف ستستمر في كتمان استنكارها لتلك الأفكار الفقيرة العنصرية، ولكن ليس أمامها سوى أن تفعل ذلك حتى تجد عملًا مناسبًا يمكنها من الاعتماد على ذاتها، كما أنها أرادت أن تستمتع بلذات كثيرة داخل هذا القصر، وقررت أن تفصل بين أمواله و أفكاره.

****

شمس: "ولكن يا أبي لماذا هذا الشعور المخزي تجاهه، وهو يمنحها كل ما تحتاج؟"

صلاح: "صغيرتي.. أن تجدي شخصًا يهبك كل متع الحياة ويسخر لك كل ما تحتاجين من ماديات، فهو أمرٌ رائع، ولكن إن كان يحمل أفكارًا لاإنسانية، فإنك حتما ستقعين في صراع قاتل؛ لأن هذا الفكر لا يقل شرًا عن القنابل والمتفجرات، التي تبيد آلاف البشر دون ذنب".

شمس: "عذرًا أبي على مقاطعتك، استكمل حكاية حياة".

****

انتهى الحوار قبل أن تأتي إحدى الخادمات بالإفطار، ليتناولا الطعام في صمت، ورحل أمير في عجل إلى عمله، كعادته.

قبل أن تصعد حياة إلى حجرتها، اعتذرت للخادمات عما حدث من إساءة لهن في حضورها، فأخبرتها الخادمات أنهن معتادات على ذلك، تزايدت علامات التوتر في عينيها، ونظرت إلى الأرض خجلًا مما حدث أمامها، وانكسار خواطر نساء مثلها.

لم يشغل بال حياة وهي تصعد درجات السلم سوى تلك النفس البشرية التي تبرر أذية غيرها بحجة واهية، فكأن كرامة البشر بالنسبة لها لعبة تأبى ألا تتركها دون تكسير، يالها من أنانية وعجرفة بلا معنى، تأكدت أن البعض تنصل من صفته الإنسانية.

كادت أن تصطدم بباب الحجرة من فرط التفكير، تنهدت تنهيدة عميقة، ثم انتبهت إلى الباب وفتحته ببطء، ثم مضت إلى حيث مقعد المكتب، جلست وهي تشعر باختناق في صدرها، وانقباض قلبها، وضعت يدها اليمنى على الجانب الأيسر من صدرها، لم تستطع أن تسيطر على حالة الحزن التي تعبث بروحها.

حاولت حياة استعادة إحكامها على ذاتها، بعد أن وقعت عينيها على اللاب، كأنها وجدت منقذ لها من هذا الألم الفكري الإنساني، سرعان ما امتدت يديها لتلتقط اللاب وتفتحه، أشغلت موسيقى هادئة، وفتحت حسابها على فيسبوك، وجدت مجموعة خاصة بالفن التشكيلي تدعو إلى معرض بالأقصر، قرأت التفاصيل لتجد أنها بعد يومين، قررت الاستعداد لها وإخبار أمير بذلك.

كتبت منشور على المجموعة الخاصة بالمعرض، تستفسر عن كيفية الذهاب والاشتراك.

وجدت تعليق من أحد المنسقين له يدعى آسر إبراهيم: "إنتِ صحفية؟".

- لا، مجرد متذوقة للفن.

- مرحبًا بك، ولكن الحافلات الناقلة ستتحرك صباح الغد ولكنها للأسف مقتصرة على الصحفيين.

تذمرت حياة أمام التعليق، هي لا تقصد ما قاله، فقد كانت تستفسر عن مدى إمكانية حضوره، وعنو انه بالتفصيل، بدأ التوتر يتوغل مشاعرها، واهتزت يدها قليلًا واجتهدت لتكتب تعليقا يكشف عما تقصده، نظرت إلى الشاشة لتجد نافذة الدردشة الصغيرة تظهر على اليسار، إنه آسر أرسل: "مساء الخير".

حياة: "مساء النور".

آسر: "أنا آسف على الرد الجاف، ولكن أود خدمتك".

حياة: "الأمر لا يتطلب أسفًا، لم يحدث شيئًا".

آسر: "عامة يمكن أن أستثنيكِ لتستقلي معنا الحافلة".

حياة: "شكرًا، أنا لم أكن استفسر عن ذلك، أنا فقط كنت أرغب في التفاصيل والعنوان، والحجز إن كان هناك تسجيل حضور فحسب".

آسر: "ليس هناك حجز، يكفي تشريفك في المعرض، أما العنوان فسأرسله لك بالتفصيل، وسأترك لك رقمي، لتحدثيني إذا لم تستطيعي الوصول".

حياة: "أشكرك جزيلًا، ولكن عليّ أن أستشير زوجي أولًا".

آسر: "زوجك؟! أنتِ متزوجة؟"

لم تعرف لماذا قالت ذلك، ربما كانت بحاجة إلى إشعاره أنها ليست بحاجة إليه، وربما محاولة لصرف نظره عنها.

حياة: "نعم".

آسر: "كم تبلغين من العمر؟"

آثار هذا السؤال حيرة حياة فهي لا تعرف عمرها، وليس في ذهنها عمر معين، عليها أن تنتظر بطاقة الهوية التي وعدها بها أمير، حدثت نفسها: "عليّ إنهاء الحديث فورًا".

حياة: "عذرًا سيدي.. عليّ الرحيل فورًا، لدي الكثير من المهام.. نتحدث لاحقًا".

لم تنتظر ردا، فهي تخشى أن تنجرف في الحديث معه، أثنت شاشة اللاب دون إغلاقه، وشرد ذهنها بعيدًا، ثم بحثت عن هاتفها المحمول، فوجدته على المنضدة بجوار السرير، التقطته وجلست على السرير، و اتصلت بأمير.

بصوت ناعم مرهف مفحم بالحنان تقول: "ألو".

أمير: "حبيبتي.. أأنت بخير؟"

حياة: "نعم، أردت الاطمئنان عليك".

أمير ضاحكًا: "أنا بخير، ولكن وراء تلك المكالمة أمر ما".

حياة: "أردت أن أستشيرك في أمر ما".

أمير: "أسمعك".

حياة: "قرأت على الإنترنت أن هناك معرض للفن التشكيلي بالأقصر، و أنا أرغب في الحضور ولكن لا أعرف كيف".

أمير: "حسنًا حبيبتي.. تحدثت إلى مسؤولين ودقائق وتكون بطاقة هويتك معي".

حياة مبتهجة: "حقًا؟ يا لك من رجل رائع.. هل ستذهب معي إلى الأقصر؟ أنا لا أعرف شيئا هناك".

صمت أمير برهة، ثم قال: "هي متى؟".

حياة: "يوم الخميس، لمدة يوم واحد فقط".

أمير: "عذرًا حبيبتي أنا جدول أعمالي ممتلئ بالمهام، ولكن لا عليك، سأحجز لك تذكرة طيران ذهاب وعودة بعد أن أستلم البطاقة، وسأحجز لك في فندق تابع لنا، لا تقلقي، سيصبح كل شيء على ما يرام، سأجهز لك كل شيء، وسأكون على تواصل معك، وإن أحببتي أرسل معك مرشدًا".

لم تتفاجأ حياة بهذا فهي اعتادت أنه لا يهتم بها سوى ماديًا أما المشاعر والإنسانيات فهو لا يفقه فيها شيئًا، ولكنها تبدو سعيدة لأنها بحاجة إلى التحرر والتعرف على أشخاص غيره، تعيش حياتها بشكل طبيعي بعيدًا عن التوتر والحبس والطبقية.

حياة: "لا عليك حبيبي، ولا أريد مرشدًا، أودت أن أعتمد على نفسي، وإن احتجت شيئًا سأتواصل معك، لكن أتمنى أن تنتهي إجراءات البطاقة سريعا، لأني بحق في حاجة إلى السفر".

أمير: "في أقرب وقت".

حياة: "أشكرك عزيزي".

أمير: "أتأمرين بشيء آخر".

حياة: "سلمت لي".

أمير: "سلام".

حياة: "سلام".

أغلقت الهاتف وعلى وجهها ابتسامة، شردت قليلًا، ثم نزلت لتداعب الخادمات كعادتها، وتناولت معهن وجبة الغداء، ثم جلست لتشاهد التليفزيون، حتى يأتي أمير في وقت مبكر عن عادته، فقد اعتاد العودة إلى المنزل في الحادية عشر مساء، بينما الساعة الآن التاسعة.

نظرت إليه حياة بتعجب: "هل أنت بخير؟".

أمير بابتسامة صفراء: "أتودين أن أذهب وأعود في موعدي حتى لا تقلقي.. أنا بخير".

حياة: "بالعكس أنا سعيدة لرؤياك".

أمير: "عامة وددت أن أصنع لك مفاجأة وأحضر شهادة ميلادك وبطاقتك بنفسي".

غمرت السعادة عينيها حتى كادت اللمعة تضيئهما، وصرخت: "أنت تمزح؟!".

أخرج أمير أوراق من حقيبته وأعطاها حياة، قائلًا: "لا أمزح حبيبتي.. إنها حقيقة".

أخذ نفس عميق واستطرد: "أنت من الآن حياة أمير كامل.. ٢٥ سنة".

شاب التعجب نظرتها الناعمة إلى البطاقة: "حياة أمير!".

خفف أمير من تعجبها، وقال: "أردت أن أربط اسمي باسمك إلى الأبد، كما أن اسمك يعبر عن حالتي، فأنتي حياتي كلها، وبك أشعر أنني كامل".

حياة: "لا أعرف ماذا يمكنني أن أقدمه له نظير ما تفعله معي، أنا حقًا ممتنة لك".

أمير: "انتظري حتى ترين المفاجأة الثانية".

حياة: "مفاجأة ثانية؟! ليس هناك مفاجأة أروع من تلك".

أخرج أمير ملفًا أسودًا وأعطاه لها، فتحته لتجد تذكرة ذهاب وإياب للأقصر، تبدأ مساء غد الأربعاء وتعود صباح يوم الجمعة، واستمارة حجز في فندق، وبطاقة ائتمان باسمها الجديد.

شعرت حياة بالرضا ورفعت رأسها لتبتسم إلى أمير، قائلة: "رائع أنت".

أمير: "سأستبدل ملابسي، لنتناول العشاء، أخبريهن يجهزن الطعام في الحديقة، فأنا بحاجة إلى استنشاق الهواء النقي جوارك".

حياة بابتسامة: "حسنًا".

صعد أمير، بينما ظلت حياة فرحة بما حققته، بعد أن أثبتت كيانها بشكل رسمي، وتستطيع أن تبدأ حياة فعلية دون قلق، فجأة جال على خاطرها آسر الذي احتك بها بشكل اعتبرته يقلل من شأنها، ولكنها لم تطل التفكير وذهبت إلى المطبخ، لتمزح مع الخادمات كعادتها، إلا أنها سرعان ما تركتهن عندما سمعت دقات أقدام أمير تنزل السلم.

جلس أمير مع حياة وسط الخضرة، ولكنها كانت تلك المرة شاردة الذهن عنه، فقد اعتادت تناول الطعام معه في صمت، وفور انتهائها منه صعدا إلى النوم، وهو يكثر من الحديث معها، بينما هي ترد بإجابات مقتطبة، لأنها كانت تنتظر تلك الساعة التي تستقل فيها الطائرة التي تنقلها إلى بلد الآثار.

لم تستفق من حالة التفكير العميق تلك سوى عندما دخلت غرفتها، وجلست على مكتبها، وفتحت اللاب لتجد شات آسر مفتوح على صفحة فيسبوك، لقد أرسل رسائل عديدة، تقرأها: "أرجو ألا تغضبي مني، وأعتذر عن أسلوبي الأحمق.. عذرًا، وعذرًا ثانية لأنني تطفلت على حياتك".

ردت حياة: "عذر غير مقبول؛ لأنه دون مبرر، مرحبًا بك سيدي".

سرعان ما أجاب آسر: "فقط أشعر أنك قريبة مني، أودت التعرف عليك ".

حياة: "قبل أن تتعرف عليّ، أود أن أخبرك أن زوجي و افق على سفري، وسأحضر المعرض".

آسر: "أمر رائع، لقد دعوت الله أن تأتي لأراكِ".

استعجبت حياة من تسرعه في الحديث عن الرؤية والاشتياق، ولكن لا بأس بتلك الكلمات الرنانة التي تشرح صدرها، ردت عليه: "أشكرك".

آسر: "هل ستأتي معنا غدًا بالحافلة؟".

حياة: "لا.. حجزت طيران مساء غد".

آسر: "إذن نلقاكِ في المعرض".

حياة: "ولكن لدي استفسار.. هل أنت منسق المعرض؟".

آسر: "لا.. أنا مصور صحفي، وعلى علاقة جيدة بالفنان صاحب المعرض، فطلب مني بشكل شخصي أن أصوّر، وأشارك المنسق و أتواصل مع الصحافة والإعلام".

حياة: "جميل.. كونك على علاقة بالفنان الكبير أيمن الخولي، أعلم أنه من رواد الفن التشكيلي في مصر، كم تمنيت أن أعمل معه".

آسر: "يبدو أن الله أرسلني إليك لأحقق أمنياتك، سأعرفك عليه، ولكن هل أنت فنانة أيضا؟".

حياة: "أهوى هذا الفن ولكن لم أجد من يتبناني".

آسر: "أشعر أن لديك حس راقي، أكيد فنانة جميلة".

حياة: "أشكرك، نلتقي في المعرض".

آسر: "انتظري، هلا تمنحينني رقم هاتفك لأتواصل معك".

حياة: "دعنا من رقمي، اعطني أنت رقمك".

أرسل لها آسر رقمه، وسجلته على هاتفها ولكنها لم تمنحه رقمها، وأغلقت فيسبوك، ثم أشغلت أغنية "أغدًا ألقاك" للسيدة أم كلثوم، وذهبت نحو السرير لتنام على صوت الموسيقى الهادئ وهي تنتظر الغد بفارغ الصبر.

****

شمس: "يبدو أنها كانت أسيرة لأم كلثوم مثلي".

صلاح: "أظن أنك أنت من بك الكثير منها".

شمس: "ولكن غريب اختيارها لتلك الأغنية.. أغدا ألقاك.. كانت تعني المعرض أم هذا الشخص المتهور؟"

صلاح: "ربما لأنها تنتظر المعرض، وربما لهذا الشعور العجيب الذي ينتابها تجاه شخص لأول مرة تتحدث معه، ربما لأنه مصدر خير لها، فهو سيسهل لها لقاء مع أحد أكبر الفنانين التشكيليين في العالم، وإن استطاعت التقرب منه فإنه سيسهل عليه الكثير للوصول للحلم".

شمس: "عذرًا أبتي أقاطعك كثيرًا، ولكن تلك القصة تحرك شيئًا ما داخلي، تجعلني أريد الاقتراب".

صلاح: "سأكمل لك القصة".

(٥)

لم تشعر حياة بنفسها سوى وهي داخل مطار القاهرة الدولي، وقد ارتدت بنطالًا أسودًا و"بلوفر" أسود، ومعطفًا داكن الحمرة، وحملت حقيبتها السوداء، نظرت إلى الساعة في هاتفها فعلمت أنه ما زال لديها وقت كافي لتناول كوبًا من النسكافيه.

ذهبت إلى الاستراحة واشترت كوبًا من النسكافيه، ومع الرشفة الأولى تذكرت آسر فهاتفته، ولكنها وجدت شيئًا غريبًا، فقد استمعت إلى رنة هاتف جوارها مع بدء رنين هاتفها.

نظرت جوارها فوجدت شابًا يبدو في أوائل الثلاثينات من عمره متوسط القامة، متوسط الحجم، أسمر اللون ذو عين سوداء لامعة، شعره أسود طويل يقصر عن رقبته بمسافة غير بعيدة، يرتدي بنطالا من "الجينز" وبلوفر أبيض يشوبه السواد، يعلوه معطف أسود، ويحمل شنطة سوداء بيده اليمنى.

التقط الشاب هاتفه من جيبه وأجاب على الهاتف: "ألو"

لم تنتبه حياة سوى على صوت هاتفها شاب يقول: "آلو"، وجدت صدى صوت، ولكنها استطردت: "مرحبًا بك.. أنا حيا..."

قاطعها الشاب الذي يقف جوارها بعد أن اقترب منها ومدّ إليها يده للسلام، فأغلقت الهاتف وهي لا تزال مندهشة، عينيها مفتوحة، ورموشها لا تتحرك، يداها مرتعشة لكنها مدت يدها اليمنى إليه.

أثّر الارتباك عليها وأزاد إحساسها بالصقيع، إلا أنها شعرت بحرارة يد الشاب، ما زالت صامتة، حتى يبادرها الشاب بابتسامة: "أنا آسر.. يا لها من صدفة عجيبة".

حياة في خجل: "أنا مازلت لا أفهم أي شيء".

ضحك آسر ونظر لها بحنية، ثم قال: "دعينا نجلس وخذي نفسًا عميقًا، واستكملي النسكافيه".

هزت حياة رأسها بالإيجاب: "سأفعل".

لم تمض دقائق حتى سمعا نداء للمتجهين إلى الأقصر، بأن عليهم التوجه إلى الطائرة، نظرت إليه حياة وقالت: "علينا أن نذهب".

آسر: "لا يزال لدينا وقت، استكملي النسكافيه".

حياة: "لا.. يكفى ذلك.. علينا الذهاب".

لقد كانت المفاجأة أكبر منها، فهي ما زالت وجلة قلقة، غير مدركة لما حدث، فما حدث معها لا يتكرر كثيرًا، خاصة في العلاقات الافتراضية، لذا فهي شعرت أنه شخص غير عادي في حياتها.

ازداد خوفها عندما دخلت الطائرة، فهي لا تعرف هل سيتاح لهما الجلوس سويًا أم ستبعدهم المقاعد، نظرت حولها فوجدت صفين كل صف يحوي ثلاثة مقاعد، طلب منها آسر رقم المقعد الخاص بها، هو في منتصف الطائرة جوار الشباك، أوصلها حتى المقعد، فوجد جوارها رجلًا استأذنه أن يستبدلان مقعديهما، فوافق.

نظرت إليه حياة بريبة وقالت باستنكار: "أخبرتني أنك ستتحرك في حافلة، وأنت الآن على متن طائرة".

ابتسم آسر وتمعن النظر فيها: "يبدو أن الحظ تحالف معي حتى أرى هذا الجمال الطاغي".

بادلته حياة البسمة ولكن على خجل: "أشكرك".

آسر: "انشغلت بتصوير مؤتمر مهم كان عليّ أن أحضره، فلم يكن أمامي سوى السفر بالطائرة لكي أستريح قبل المعرض، وقد يكون معرفتي بأنك

ستسافري في طائرة الليلة ساعدتي في اتخاذ تلك الخطوة، برغم أنني لم أكن أتوقع اتصالك".

مع انطلاق الطائرة شعرت حياة بأن روحها صعدت وأن الدم انسحب من وجهها، فأمسكت بيد آسر دون وعي، ما جعله يشعر بريبتها فتحسس يدها، وقال: "هل أنت بخير؟".

هزت حياة رأسها بنعم، ثم أغمضت عينيها، وأخذت نفسًا عميقًا.

آسر: "لا يجب أن تشعري بأي سوء و أنا جوارك، فأنا لن أتمهل في أن أمزّق نفسي لأجلك يا سيدتي، ولكن إن شعرتِ بأي ألم و أنت معي فسأسحق نفسي، لأن هذا الوجه الرائع الملائكي وتلك العينان الساحرتان لا تستحق سوى السعادة والبهجة".

استردت حياة حيوية وجهها وتورد خديها، و ابتسمت على خجل، فلقد حركت كلماته كيانها، ربما لأنه يجيد فن التعامل مع الأنثى، وهي بحاجة شديدة إلى ذلك، فكانت في هذا الوقت في أشد الاحتياج إلى أن تظهر ضعفها الأنثوي أمام رجل يحويها ويقدر جمالها.

ازداد آسر تعمقًا في تأمل وجه حياة، واستطرد تغزله: "عذرًا أني قلت أن عينيك ساحرة، فالسحر خلق من ضيهما..".

قاطعته حياة: "كفاك تغزلًا.. أنت لم ترني سوي منذ دقائق، وقت غير كافي حتى أصدقك".

آسر بطلاقة ودون تردد: "ولكن هذا ما أراه، أنا أراكِ هكذا، إذا لم تصدقيني انظري إلى المرآة".

تريثت حياة برهة من الزمن، وكأنها تحاول أن تهرب من كلامه، ثم سألته: "أين ستقضي ليلتك؟".

آسر: "بعد عناء اليوم علينا أن نستريح، حتى نستطيع أن نواصل في المعرض".

حياة: "حسنًا".

شعرت حياة بهزة والطائرة تهبط، ما حرك داخلها هواجس الخوف، فأصابت بالدوار، شعر بها آسر وأمسك بيدها وتحسس شعرها في محاولة لتدفئتها، وهمس في أذنها: "لا تخافي، أنتِ بخير، ولكن يبدو أن الطيار غشيم بعض الشيء".

آثارت تلك الجملة ضحكة حياة وحاولت أن تتمالك نفسها، وهي تشد قبضتها على يديها لحظة اصطدام الطائرة بالأرض.

انتظر آسر خروج كل الركاب، حتى يخرج ممسكًا بيد حياة، بعد أن أخبرها أن عليها أن تستجمع قواها أولًا، وفور خروجهما من المطار، سألته حياة: "ما طريقك؟".

آسر: "طريقي هو طريقك".

تتبسم حياة، وتعيد السؤال بشكل أكثر جدية: "أخبرني حقًا أين ستذهب؟".

آسر: "للأسف لم أحجز في فندق بعد، افعلي بي خيرًا واصطحبيني إلى الفندق، وإن لم أجد غرفة سأبحث في فندق آخر".

حياة: "اتفقنا".

آسر: "هيا نستقل تاكسي من هنا".

أشار آسر إلى تاكسي واستوقفه، وأخبرته حياة عن اسم الفندق وعنوانه، ثم استقلا التاكسي، الذي تحرك بهما وسط أعواد القصب المنتشرة على جانبي الطريق، بينما ظلت حياة تتأمل تلاقي الخضرة مع السماء الصافية.

لقد كانت عاشقة للطبيعة، تنتعش وسطها، كانت في قمة نشوتها وهي تمضي تحت السماء الصافية وسط الخضرة يضمها الهواء الطلق، سحرها ليل الأقصر الأكثر هدوءًا من العاصمة، واجتذبها جمالها المبهج الصافي.

خطفت الطبيعة ذهن حياة فلم تنطق ببنت شفاة حتى نزلت من التاكسي، ودخلت الفندق مع آسر، وهي تتأمل جدرانه المنقوشة بآثار فرعونية مدهشة، أصابت فؤادها فكم تمنت أن تقف صامتة أمام كل رسمة ليلة كاملة لتعبر عما بداخلها من إعجاب بها، تمنت لو أنها تحضر فرشاة وتترك ليدها ووجدانها السراح لتنقش على الجدران الفارغ ما تهوى.

بمجرد وصولها إلى الاستقبال سألت عن غرفة محجوزة باسمها، فأخبرها أن الحجز متاح، وأعطاها مفتاح غرفتها، فيما سأل آسر عن غرفة متاحة، فطلب منه أن ينتظر لحظات، ثم أخذ بياناته، وأعطاه مفتاح غرفة، بعدها انطلقا سويًا نحو المصعد الكهربائي.

رافق آسر صاحبته حتى غرفتها، ثم اقترب منها وهمس بأذنها: "تصبحين على خير، وإن احتجتِ شيئًا حادثيني".

حياة: "و أنت من أهل الخير".

أفكار كثيرة طفت على ذهن حياة بعد أن دخلت غرفتها، هيمنت عليها جعلتها لا ترى أمامها، لم تكترث كعادتها بتأمل الأجواء المحيطة، كل ما فعلته أنها تمددت على السرير وأغمضت عينيها استعدادًا لنوم عميق، بعد أن تناولت جرعة من الأمان ورشفة من العاطفة والسحر.

استيقظت على رنين هاتفها المحمول، التقطته ونظرت في الشاشة إنه آسر، انتفضت من السرير، وردت على مكالمته: "صباح الورد".

- صباح الجمال والصوت العذب.
- يبدو أنني نمت بعمق، لا أعرف كم الساعة.

- إنها العاشرة، لدينا وقت لتناول الإفطار قبل الذهاب إلى المعرض.
- حسنًا، أعطني نصف ساعة لأصبح جاهزة.
- وهو كذلك.

استحمت حياة وتعطرت وارتدت ملابسها، ووضعت القليل من مساحيق التجميل، وقبل أن تردي الحذاء استمعت إلى طرقات الباب، أسرعت في ارتدائه، ثم فتحت الباب لتجد آسر مبتسمًا، يحمل حقيبته: "مضت نصف ساعة كاملة".

ردت إليه الابتسامة: "و أنا مستعدة.. هيا بنا".

مضيا سويًا نحو المصعد الكهربائي، ونزلا إلى المطعم، ليظهر آسر رقيه في التعامل مع الأنثى، واحترامه لها، طالبها باستباقه والمضي أمامه، اختار منضدة جوار شباك يطل على منظر النيل الأخاذ الخلاب، الذي طالما مس وجدانها.

لم يكن آسر كأمير، فهو يجيد التعامل مع نفسية الأنثى، يمس كيانها، يداعب جسدها في رفق يجعله يهتز بين يديه ككمنجة في يد عازف.

وكانت حياة تجد متعة مذهلة في كونها تتناول الإفطار بين أحضان السماء الصافية وهي تستنشق رائحة عطر النيل، وترى مياهه النقية التي تتخللها التلال الخلابة، وتأسر سمعها موسيقى هادية وهمسات عشق وغزل.

شعرت حياة أن تلك اللحظة من الأوقات السعيدة التي يجب أن تتركها ذكرى في خيالها إذا لم تستمر، يوم يبدو مبهجًا يدعوها للتفاؤل، نظرت نظرات ثاقبة إلى مياه النيل، استفاقت منها على صوت التقاط الصورة، فوجهت نظرها تجاه الصوت لتجد آسر يحمل كاميرا بين يديها ويحركها تجاهها ليلتقط لها مجموعة رائعة من الصور.

تناولا الإفطار وهما يتبادلان الحديث، وحرص على سؤالها عن الطعام، وما إن كانت تحتاج شيئًا آخر، ما جعلها تعقد مقارنة سريعة بينه وبين أمير، لتستخلص فروقا كثيرة.

كانت المقارنة تصب لصالح آسر، ولكنها كانت تعلم أن أمير معه سرها، ويعرف حقيقتها، ومع ذلك وهبها حياته وماله، ما جعلها تكن له امتنان، وشعور بالجميل.

اجتذبها من هذا التفكير رنين هاتفها، نظرت إلى شاشته، إنه أمير كأنه شعر بما يدور بخاطرها.

أحس آسر بارتباكها فسألها: "زوجك؟".

حياة بخجل ممتزج بالتردد: "نعم".

ردت على الهاتف: ألو.

- اشتقت إليك حبيبتي.

- و أنا أيضًا حبيبي.

- هل ذهبتِ إلى المعرض؟

- أنا أتناول الإفطار وسأكون في طريقي إلى المعرض خلال دقائق.

- هل تحتاجين أي شيء؟

- لا أحتاج شيئًا عزيزي، اعتني بنفسك.

- إلى اللقاء عزيزتي.

- إلى اللقاء.

أنهت حديثها بينما يبدو آسر منهمكًا في الطعام، إلا أنه كان منصتًا لما تقوله، وكأنه يحمل بعض الحقد تجاه هذا الرجل.

سرعان ما أنهيا طعامهما، وتناولا فنجانين من القهوة، لينطلقا إلى الحدث المنتظر.

فور خروجهما من الفندق، اقترح آسر أن يستقلا "حنطورًا" يوصلهما إلى مكان المعرض.

أبدت حياة علامات الانبهار: "يالها من فكرة مجنونة، عظيم أنت".

ابتسم آسر وبدأ في التحدث إلى سائقي الحناطير، ليوصلهما أحدهما حيثما يريدان، صعد أولًا ثم مد إليها يده يجتذبها إلى المقعد، ووضع يده على كتفها، وهي توزع نظراتها الحائرة بينه وبين منظر النيل الخلاب، ومنظر الطريق الممهد، الذي يخيل إليها أنه منديّ تحت أشعة الشمس.

أطالت حياة النظر إلى الأوراق الخضراء التي يكتسي بها الطريق، حتى انتبهت لتحرك يد آسر منسحبة من كتفها، نظرت تجاهه لتصطدم بكاميرته أمام وجهها تنهل ما تشاء من لقطات مبهجة، وتسجل لحظات تمنت أن تستمر لأعوام.

وصل الحنطور بهما إلى المعرض، ونزل آسر ثم وضع يده على محيط وسطها ليحملها إلى الأرض، بينما تصادفت عيناها بعينيه اللاتي اجتذبتها للتعمق بهما دون أن تدري.

وفجأة، سحبها آسر بسرعة، فأفاقت من هيامها لتجد سيارة حمراء تقف ليخرج منها رجل يبدو في منتصف الخمسينات من عمره، متوسط القامة، يميل إلى السمنة، ذو وجه مستدير قمحي اللون مائل للحمرة.

ابتسم الرجل في وجه آسر، وبادره بالسلام، وهو ينظر متعجبًا إلى حياة، وقال: "أهي زوجتك؟".

آسر مسرعًا: "لا.. إنها حياة.. صديقتي".

نظر الرجل إلى حياة ومد إليها يده بالسلام، ليصافحها، شعرت بدفء يده الممتلئة بالحنان والعطف، تبسمت له، قائلة: "مرحبًا.. أشعر أنني رأيتك من قبل".

آسر: "وهل يخفى الفنان التشكيلي الكبير أيمن؟!".

حياة بتلهف وكأنها تحاول أن تصلح ما أفسدته: "بالطبع هو غني عن التعريف، ولكن أشعر أنني التقيت به من قبل، وتحدثت إليه".

بابتسامة مشرقة، رد عليها أيمن: "لا أظن أنني رأيت هذا الوجه النضر، والعينين الساحرتين، ولا أظن أنني لمست تلك اليد الرشيقة، التي تحمل أصابع فنانة".

ابتسمت حياة ابتسامة المنتصر: "هذا يجعلني أطلب منك بثقة أن تمنحني رقم هاتفك الخاص".

أيمن: "لكِ الهاتف كله وصاحبه إن أردتي".

أعطاها رقمه، ثم انطلقا جميعًا لافتتاح المعرض، بينما وقف آسر على بعد خطوات منهما للالتقاط صور لهما وللمكان وللمنظر البديع من حولهما.

اختطفت نظرات حياة لوحات فنية مدهشة، وسرقت ذهنها، فما عاد وجدانها يحمل داخله أي عشق سوى لتلك الصور البديعة، تعمقت في تأمل لوحة فنية تجسد الطبيعة وتبرز أشعة الشفق الحمراء المنبثقة من الشمس لحظة الغروب، والتفت إلى لوحة تحمل صرخات أنثى متألمة من نيران محيطة حولها وسكاكين تقترب من جسدها.

تمنت لو أمسكت فرشاة وخططت على ورقة بيضاء لتعبر عما يحمله صدرها من شجن ممتزج بفرح لا تبالي به، شعرت أن فؤادها أجوف، وأن روحها تائهة، لم تجد ذاتها، ودّت لو أخرجت على الورق ما بداخلها من طاقة قد تحطمها إذا دفنتها داخلها، بل قد تدمر مجتمع بأكمله.

بعد انتهاء المعرض، سلمت على الفنان التشكيلي الذي نبهها بأنه ينتظر اتصالًا هاتفيا منها في أقرب وقت، بينما اصطحبها آسر في تاكسي إلى الفندق مع اقتراب الساعة الثانية عشر، بعد أن أرهقهما عناء اليوم.

ما زال مفعول اللوحات يؤثر عليها، ويخطفها بعيدًا عن الواقع، إلا أن لمسات آسر التي تحنو على يدها جعلتها تستعيد شعورها بوجوده، فانتبهت إلى رائحة عطره التي اجتذبتها، لكنها لم تتحدث إليه وإنما اكتفت بالنظرات.

فور وصولهما، دخلا المطعم، وسألها آسر: "ماذا تحبين أن تأكلي؟".

حياة: "لا أعرف.. أشعر أنني بحاجة إلى الراحة أكثر من الأكل".

آسر: "نأكل ثم ننام".

حياة: "إذن فلنأكل أي شيء جيد لديهم".

عندما أتى النادل إليهما ليعرف طلباتهما، سأله آسر عن أجود طعام لديهم، فاقترح "شرائح اللحم المغلفة بالمشروم"، فرحبا به.

عقب تناول العشاء، صعدا سويًا في المصعد الكهربائي، لا أحد غيرهما، أطالت النظر في عيني آسر، اقترب منها قليلًا، اقترابه منه أثار حواسها، جعلها ترغب في الاقتراب أكثر، إلا أن فتح الباب بعد وصولهما إلى طابق حجرتها منعها من ذلك، ثم أوصلها إلى غرفتها، ثم طبع على جبينها قبلة ناعمة وانصرف.

****

شمس: غريب هذا الرجل الذي ينهال بالغزل على فتاة لأول مرة يراها.

صلاح: لقد كان آسر كالكثير من الرجال تحركه رغباته وشهواته للمرأة، ولكنه بحكم طبيعة عمله وتعامله مع الفنانين أصبح أكثر جرأة، وأكثر صراحة، رأى لوحة فنية جميلة فقرر أن يضع بصمته عليها.

شمس: ولكن يبدو أنها أعجبت به.

يتبسم صلاح: كانت أكثر ذكاءً من أن يخدعها كلماته، ربما كانت بحاجة إلى سماع تلك الكلمات، ولكنها كانت دائمًا تفكر وتحلل وتفهم من نظرة واحدة، عرفت جيدًا ما يريد ولكن كانت مصرّة لأن تصل لكل ما تريد.

شمس: هل تقصد أنها كانت تعرف ما يريد وتريده أم ستضحي لأجل هدف آخر؟

صلاح: ستعرفين يابنيتي، ولكن علينا الذهاب إلى النوم الآن وأمامنا الغد كاملا.. إنه يوم الراحة.

شمس: حسنا أبتي.

تنهض شمس وتذهب إلى غرفتها لتعود إلى السر الذي يشغل ذهنها، تمسك هاتفها الذي تركته جوار اللاب فتجد ١٠ مكالمات فائتة تفتحها لتجده الرقم المنتظر، سرعان ما تعيد عليه الاتصال لتعرف ما الأمر.

- مرحبًا
- مرحبًا عزيزتي
- أعتذر بشدة عن عدم الحضور ولكن أمر خارج إرادتي حقًا، ولكن أظن أنني أرسلت لك تعويضًا عن هذا الغياب.. هل رأيتِ الأسطوانة؟
- للأسف الملفات التي بها لا تفتح ولم أر أي شيء.
- يا إلهي.. عذرا سيدتي لو يمكنني أن ألقاكِ غدا بعد الظهر في نفس المكان وأحضر معي كل شيء ونتحدث كما تشائين.
- حسنًا.. ولكن كيف أضمن أنك لم تخلف موعدك ثانية؟
- بحق لوحة صرخات أنثى
- صرخات أنثى؟!
- نعم.. أنسيتِ مشروع تخرجك؟
- حقًا، لقد نسيت الكثير والكثير وليس تلك فقط، ولكن كيف عرفت تلك اللوحة؟

- غدا ستعرفين كل شيء.. سأنتظرك.
- حسنًا.

تنهي شمس مكالمتها، وقد عادت إلى ما قبل سنوات عندما كانت ترسم لوحة أعدتها لوحة العمر آنذاك وها هو الزمن يتغير وتنسى تلك اللوحة.

لم يمض لحظات حتى تتذكر شمس رواية أبيها عن اللوحة التي آثارت مشاعر حياة في معرض الدكتور أيمن.. "ما هذا الخيط السميك الذي يربط حياتي بها؟ ليس مجرد حلم أو أضغاث أحلام وإنما واقع ملموس يربطني به سر لا أعرفه".. هكذا راودتها تلك الأفكار حتى استسلمت إلى النوم بعد عناء دام لساعات.

استقيظت شمس مبكرا كعادتها وأعدت الفطور وأيقظت أبيها ليستكمل لها القصة.

(٦)

استيقظت حياة كعادتها فجرًا وبدأت في الاستعداد للرحيل، رتبت غرفتها، وارتدت ملابس الخروج، ووضعت القليل من مساحيق التجميل، ثم اتصلت بآسر لتوقظه، ولكنه فاجأها بأنه جاهز للانطلاق.

صعد آسر إليها ليصطحبها من غرفتها، اقترب منها قليلًا وهما في المصعد، ثم همس بأذنها: "سأفتقدك كثيرًا".

هزت تلك الكلمة كيان حياة، ربما لأنها كانت بحاجة إلى سماع مثل تلك الكلمات، في تلك الفترة، خاصة أن أمير برغم كل ما يمنحها إياه إلا أنه لم يستطع أن يعطيها الحنان الذي تريده، ولكنها لم ترد عليه واكتفت بابتسامة.

استقلا تاكسي ليوصلهما إلى المطار، ثم انطلقا بالطائرة، ولكن تلك المرة هي مكونة من صفين، تجلس هي جوار الشباك وهو جوارها.

ارتكنت حياة على ظهر المقعد، وهي تبدو مرهقة، سرعان ما يشعر بها آسر فتحسس يدها اليسرى الملقاة على المسند، ثم حملها بين يديه وقبلها، هامسًا: "لا تقلقي عزيزتي".

حياة: "يبدو أنني لن أعتاد على تلك الرجة مطلقًا، أشعر أن روحي تصعد معها".

آسر: "ساعة واحدة، وسنكون بالعاصمة عزيزتي".

تنهدت حياة: "كان يومًا ساحرًا.. كم أنا سعيدة أنني قابلت الفنان أيمن".

آسر: "سأظل أذكر هذا اليوم، ولكن بالطبع سنكرره".

حياة: "حسنًا".

بمجرد خروجهما من المطار، رن هاتفها فأخرجته من حقيبتها.. إنه أمير، أجابت، فأخبرها بأنه أرسل إليها سائق بسيارة ليوصلها، فتبسمت وشكرته على ذلك ثم أغلقت الهاتف، ونظرت إلى آسر، قائلة: "عليّ الرحيل، زوجي ينتظرني".

سلّم عليها آسر برفق، وقال لها: "سأشتاق إليك كثيرًا، ولكن سنتواصل بالتأكيد".

حياة: "بالطبع".

رحلت حياة لتستقل سيارتها، ولكنها طلبت من السائق الذهاب إلى أقرب مكتبة في طريقهما من أجل شراء بعض اللوازم، وبالفعل اشترت فرشاة، ومجموعة من الألوان والألواح البيضاء، ولوازم الرسم، فقد كانت تشعر أن داخلها بركان تريد أن تفجره على اللوحات، أرادت أن تخرج كل ما بداخلها من طاقة على الورق، خاصة بعد أن رأت معرض الفنان العالمي الذي جعلها تتحمس أكثر لأن تصبح مثله.

بمجرد وصولها إلى المنزل، سلمت على الخادمات، ثم أسرعت إلى حجرتها، في محاولة للارتخاء قليلًا على الفراش على أنغام أغنية "أنت عمري" التي تهدئ من نفسها، وتمنحها الراحة النفسية.

اندمجت في سماع الموسيقى الهادئة، وقبل أن تبدأ كلمات الأغنية، نهضت من فراشها، وجهزت أدوات الرسم ونصبت اللوحة، ثم أمسكت بالفرشاة وتحسستها برفق كأنها جوهرة تخشى خدشها.

شعرت أنها كانت في أشد اشتياقها إلى تلك اللمسة، بدأت في تحريك الفرشاة على اللوحة وهي تتأمل حركة أصابعها التي ترقص بخفة على سطح اللوحة الفارغة، وجدت ذاتها ترفرف أمامها وتتحرر لتعبر عن نفسها على الورق دون قيود.

عكفت حياة على اللوحة الأولى ليال و أيام، دون أن تعبأ بأي شيء آخر، سوى تواصلها مع الطبيعة التي تستلهم منها إبداعها، وحديثها مع آسر الذي امتد إلى الحديث عن المشاعر والاشتياق واللهفة.

بعد أن انتهت من لوحتها الأولى، خطر بذهنها أن ترسلها إلى الفنان أيمن على برنامج "واتس أب"، ثم هاتفته لتخبره بما فعلت، ولتعرف رأيه.

أيمن: "ألو".

حياة: "مساء الخير.. أنا حياة قابلتك في معرض الأقصر، كنت برفقة آسر المصور الصحفي".

أيمن: "أهلًا بك.. بالطبع أذكرك وكنت أنتظر مهاتفتك لي أيتها الجميلة الناعمة".

حياة: "رفقًا بي فأنا لا أتحمل سحر كلام فنان كبير مثلك".

أيمن: "ليتني أستطيع أن أتحمل جمالك".

حياة: "كلامك هذا يحفزني على أن أتقرب إليك بطلب خاص".

أيمن: "بالطبع، طلباتك أوامر يا هانم".

حياة: "أرسلت إليك أولى لوحاتي، لقد دفعتني شحنة الحماسة التي التهمتها من معرضك إلى أن أطلق لفرشاتي العنان في سماء الورق، أتمنى أن تراها وتقيمها وتنتقدها لأتعلم منك".

أيمن: "إذا كانت رؤيتي صحيحة، فأنت فنانة حقًا".

حياة: "ليس الأمر كذلك، إنها لوحتي الأولى، وأريد رأيك حتى أحدد هل أستطيع أن أكمل أم أنه ليس طريقي؟".

أيمن: "إذن أعطيني بضع الدقائق أرى ما أرسلتيه إليّ وأعيد محادثتك".

حياة: "حسنًا".

أنهت حياة المكالمة وقلبها ينبض سريعًا قلقًا من رأي الفنان الكبير، كانت تخشى أن تكون غير مؤهلة لأن تقيم حلمها وتصبح من أشهر الرسامين، تباع لوحاتها بآلاف الجنيهات، لقد كانت تعلم أنه حتما سيتبناها إن أعجبته لوحتها ولكن ماذا لو لم تعجبه؟!

مرت عليها الدقائق ساعات وربما أطول، فمددت جسدها على السرير، في انتظار الرد، وبدأ القلق يعتري صدرها، فالتقطت هاتفها بسرعة و اتصلت به وهي ترتجف من الخوف.

رد عليها أيمن بصوت مبهج: "فنانة رائعة كما ذكرت سلفًا.. يالك من موهوبة".

حياة: "حقا؟! إذا كان الأمر كذلك، فلمَ لم تحادثني؟!".

أيمن: "لأنني ما زلت أتأمل لوحتك المبدعة، دعينا من هذا، أريد أن أراك حالًا".

علامات الدهشة والذهول تسيطر على وجهها: "تريد ملاقاتي أنا؟!".

أيمن: "حالًا.. سأنتظرك في نادي عند كوبري قصر النيل بعد نصف ساعة".

حياة دون تفكير: "حالًا سأستعد".

ارتدت حياة فستانًا أسود من الصوف لا تعلم لما اختارت هذا اللون ربما لأنها ترتاح إليه وربما لأنهم يعتبرونه لون الشياكة والأناقة، وربما لأنها تقابل رجلا هاما وفنانا مشهورا يجب أن تكون حسنة المظهر.. لقد اختارت اللا لون لتبدو بارزة متميزة، وضعت القليل من مساحيق التجميل، فهي دائما تجيد رسم ظلال أعينها، كانت فنانة تتعامل مع وجهها كلوحة فنية تتسم بالاتزان والتناسق، وضعت القليل من العطور وارتدت معطفها الأسود، و انطلقت.

هاتفت أمير، رد عليها: "حمدًا لله على سلامتك.. أظنك انتهيتِ من لوحتك حتى تحادثيني".

حياة: "بالفعل، انتهيت توًا".

أمير: "رائع عزيزتي، هل ستنامين؟"

حياة: "لا.. بل أشعر أنني بحاجة إلى الخروج".

أمير: "حسنًا.. سأرسل إليك السائق".

حياة: "لا أريد أن أعتمد على نفسي، سأشتري بعض لوازمي من مكان قريب.. أريد أن أتجول".

كان ردها ليس لمجرد أنها تود الاعتماد على نفسها، ولكن أرادت أن تبنى لنفسها واحة أسرار بعيدة عن أمير، فقد كانت تخشى أن يعرف عنها شيئًا، أو أن ينسحب من حياتها، لأنها تعرف رجلًا غيره.

أمير: "لك ما تشائين، ولكن كوني حريصة، وإن واجهك أي مشكلة هاتفيني".

حياة: "حتمًا".

أنهت المحادثة، ثم خرجت من باب المنزل، واستقلت تاكسي، وذهب إلى كوبرى قصر النيل، وبمجرد وصولها، وجدت أيمن أمام باب النادي يبادر بمصافحتها، وتقبيلها ويتغزل بها، ثم دخلت معه النادي وجلسا على منضدة تطل على النيل.

تحسس أيمن وجهها الناعم، قائلا: "لم أتخيل أن لديك كل هذا الفن والإبداع".

تبسمت حياة وذهنها يحلل سلوكه هذا، فقد شعرت أن لديه إحساس عميق بالنقص أمام السيدات، فهو يكثر من تحسسها وكأنه لأول مرة يرى

امرأة، برغم أنه فنان كبير ومشهور ومعجباته كثيرات لكنه بدى لها عديم الثقة برجولته يرغب دائمًا في إثبات ذكورته أمام الصبايا.

انتبهت حياة إلى ما يقوله أيمن بشأن فنها وموهبتها، وأخبرها أن صديقتين له ستحضران بعد قليل.

سألته حياة: "يبدو أنك تفضل مصاحبة السيدات".

بابتسامة ساخرة أجابها: "وهل هناك رجل لا يحب مصاحبة الجنس الناعم؟!".

حياة: "ربما، ولكن أعلم أنك متزوج".

رد على عجل: "لا، كنت متزوجًا ولكن لم نستطع الاستمرار".

"بالطبع لم تستطع زوجتك تحمل نزو اتك"، هكذا ردت في ذهنها، إلا أنها سألته: "لماذا؟".

أيمن بنبرة شجن: "وصلنا إلا طريق مسدود، كلانا لم يفهم الآخر، وربما كنا نحمل بعضا من الأنانية، ولكن في النهاية قررنا الانفصال".

حياة: "يبدو أن زواجكما كان بعد قصة حب".

أيمن: "حقًا، كانت تلميذتي أثناء عملي بألمانيا وأحببتها وتزوجنا و أنجبنا ولدًا، ولكن زادت الخلافات وقررت بعدها أن أعود إلى مصر".

حياة: "هذا من حسن حظي أن تعود إلى مصر حتى تتبنى موهبتي".

اصطحبت حياة تلك الجملة بضحكة وكأنها تمزح معه.

رد أيمن مسرعًا: "ليست مزحة أنا حقًا سأتبناك وسأعرفك على جميع الفنانين التشكيليين، وسأساعدك حتى إتمام المعرض، و أقدمك بنفسي لجمهورك".

ابتسمت حياة ابتسامة المنتصر، وجدت فتاتين في قمة أناقتهما تقبلان عليهما، سرعان ما بادرهما أيمن بالترحيب والتقبيل.

طوال الجلسة، لاحظت حياة اعتياده ملامسة السيدات وتحسس أكتافهن، ما جعلها تتأكد من أن لديه شعور بالنقص مع الجنس الآخر، وقد تكون وحدته دفعته إلى ذلك، لأنه يحاول بكل الطرق أن يظهر أن لديه الكثير من العلاقات النسائية.

لم يمض ساعتين واستأذنت حياة من الجلسة، معللة ذلك بأنها تود ألا تتأخر على المنزل، فودعها أيمن بعد أن وعدته بأن تقابله في أقرب فرصة.

استقلت حياة تاكسي ولكنها لم تعد متسرعة كما جاءت، وإنما أرادت أن تستمتع بجمال الطبيعة، نظرت حولها من خلف زجاج السيارة، وأطالت النظر في وجوه البشر، فرأت العابس والمبتهج، القانط والمتفائل، المتعجل والمتمهل.

تأملت حياة أوراق الشجر الأخضر الذي يتخلل أرصفة الشوارع، وانبهرت بتلك اللوحات الفنية البديعة التي تجسدها الطبيعة، فودت لو أن معها فراشاة ولوحة لتسطر ما تشاء من وحي الجمال الإلهي، ورغبت وقتها في أن ترسم البسمة على كل الوجوه البائسة، وتدعوها للإحساس بدفء السماوات، وبهجة النيل، ونضارة الأشجار.

قاطع تفكيرها صوت رنين الهاتف.. إنه آسر، تعجب من هذا التوقيت، ولكنها تجيب عليه: "مساء الخير".

آسر: "مساء النور.. لقد اشتقت إليك كثيرًا حبيبتي".

حياة مبستمة: "وأنا أيضًا".

آسر: "لم أعد أحتمل ألا أراك طيلة هذه الفترة".

حياة: "عذرًا عزيزي كنت مشغولة في رسم لوحتي، ولكن اليوم تحررت وخرجت لأتجول".

آسر: "حسنًا.. أين أنت؟"

حياة: "على كوبري الجلاء".

آسر: "كوبري الجلاء!! رائع أنا على كوبري قصر النيل.. انتظريني قليلًا".

حياة: "حسنا سأتنزل من التاكسي، وأرتجل قليلًا نحو كوبري قصر النيل ولنلتقي في الطريق".

آسر: "حسنًا حبيبتي".

بمجرد لقائهما، تبادلا النظرات باشتياق، وصافحها بلهفة، ثم مضيا ليتناولا الغداء سويا، بينما يواصل آسر التغزل في حياة، والحديث عن جمالها، وسحر عينيها.

انتهى اللقاء على أن يلتقيا مرة أخرى بعد يومين، ورحلت حياة متجهة إلى منزلها في صمت، وهي تفكر في السحر الذي انتابها بعد لقاء آسر.

وصلت حياة إلى حجرتها وتأهبت للنوم، لكن دقات هاتفها أزعجها، فنظرت ضجرا إليه، فوجدته أيمن، فكان عليها أن ترد لأنه الآن أصبح الحلم الذي تتعطش إليه، أجابت حياة بصوت هادئ: "ألو".

أيمن في شغف: "مرحبا حبيبتي الجميلة".

آثارت تلك الكلمة تعجب حياة، واستوقفتها، ولكن كان عليها تجاهلها، وقالت: "يبدو أنني محظوظة حتى يهاتفني فنان عظيم مرتين في اليوم".

أيمن: "عليك أن تعتادي ذلك حبيبتي، فأنا أشتاق إليك سريعا".

حياة: "أشكرك عزيزي".

أيمن: "ماذا تفعلين؟".

حياة: "سأخلد إلى النوم".

أيمن: "عذرا حبيبتي أزعجت، فلتصبحين على حب".

حياة: "و أنت من أهله".

أغلقت حياة الهاتف، وذهنها منشغل بهذا الرجل الناجح، الصلب، الهش تجاه النساء، استوقفها تصرفاته تلك التي أعدتها صبيانية، ولكن لم تطل التفكير فهي سارت في طريق عزمت على استكماله، مهما كلفها الأمر، واستمرت في تحمل مداعباته التي لا تشعر بها على الإطلاق، وتستجيب لطلباته اللحوحة بملاقاتها.

شمس: "عذرا أبتي، ولكن لدي سؤال".

صلاح: "تفضلي صغيرتي".

شمس: "قلت إنها لم تصده عن مغازلاته، ولكن حتما سيشعر أيمن بأنها تمتعض لذلك".

صلاح: "لا يا صغيرتي، الرجل الذي يسلط تفكيره على الجسد لا يهتم كثيرًا بتلك الأمور التافهة في نظره التي نسميها مشاعر".

شمس: "ولكن كيف لها أن تحتمل ذلك؟".

صلاح: "لقد كانت تتعامل بمبدأ مصلحة الذات العليا أو ما يسميه رجال الأعمال بالصفقة، فمن يلبي لها احتياجها تعامله كأنه رجلها الأوحد دون أن تشعر، لقد برمجت عقلها على ذلك، ولكن في الو اقع هم بالنسبة لها مجرد أجزاء من رجل، لا تفكر في التضحية بجزء من أجل الآخر".

شمس: "برمجت عقلها!! هل يستطيع الإنسان برمجة عقله؟".

صلاح: "نعم عزيزتي، البرمجة أمر مهم جدا، لأنه يجعلك تسيطرين على انفعالاتك، وردود أفعالك تجاه كل شيء، ولعل البعض يستخدم تلك البرمجة في بث الطاقة السلبية داخل نفوس الغير، ويجعلها لا تستطيع أن تستمتع حتى بالفرح، ولكن حياة كانت قوية الإرادة لم تحتاج مبرمج".

شمس: "حسنًا أبي، ولكن هل ستلتقي آسر كما وعدته".

صلاح: "حسنا سأكمل لك القصة".

(٧)

التقت حياة آسر، كما وعدته بعد يومين في نفس المطعم بميدان التحرير، ولكنه تلك المرة كان أكثر اشتياقًا، وكان كثيرًا ما يقترب منها، ويتحسس يديها في رغبة، حركت داخلها مشاعر التواصل، أطال النظر في عينيها ليلتقط شعاع عينيها الذي دفعه إلى النظر إلى شفتيها؛ رغبةً في الالتحام معها، ولكنه سرعان ما انتبه إلى وجود بشر في المحيط.

استجمع آسر قواه، وقال لحياة بصوت خافت: "ما رأيك نذهب إلى شقتي؟ إنها قريبة جدا من هنا".

فكرت حياة قليلًا، وقالت: "أين هي".

آسر: "في شارع عبد الخالق ثروت".

ترددت حياة بعض الشيء، ولكنها لم تستطع سوى أن تلبي نداء جسدها، فو افقت.

ارتجل الاثنان حتى وصلا إلى الشقة، واستقلا المصعد الكهربائي، بمفردهما، ما جعله يجتذبها إلى شفتيه، التي تعطشت لشفتيها، وبمجرد دخولهما الشقة، اقترب آسر من حياة لينجرفا سويًا في بحر المتعة، وامتزجا في كيان واحد، أشعرتها بأنها بين ذراعي رجل يحترف التعامل مع جسد المرأة.

علمت حياة أنها ليست المرة الأولى التي تمارس فيها علاقة حميمية، ولكنها شعرت أنها أول مرة، بعد أن تملكها الإحساس الذي ينتاب المرأة عندما تسلم جسدها لرجل وتتركه يسبح بين ثغر اته.

استسلمت حياة لنوم عميق على كتف آسر.

استيقظت حياة على تحرك آسر من جوارها، و انتزاع يده من أسفل كتفها، فقد كانت مستمدة نومها العميق من نبضات فؤاده، نظرت إليه

وجدته يتحدث في الهاتف بصوت لطيف، قائلًا: "نعم حبيبتي.. أفتقدك كثيرًا".

آثارت تلك الكلمات دهشة حياة، ولكنها حاولت إخفاء ذلك والعودة إلى النوم، إلا أنها لم تستطع فقد كان يغمرها بالدفء والحنان الذي يمهد طريق النوم.

شغل ذهنها تلك الكلمة التي قالها هامسًا في الهاتف، ما جعلها تحادث ذاتها: "هل تشعرين بالغيرة نحوه؟"، وسرعان ما أجابت: "لا، ربما مجرد فضول يدفعني لمعرفة من تلك التي يحبها؟ ولماذا إذن يخونها معي؟".

فضحها شرود ذهنها فارتعش جفن عينيها، واضطرت إلى أن تفتح عينيها، لتجد آسر يطيل التأمل في قسمات وجهها، سرعان ما خاطبها بصوت خافت حاني: "أعتذر حبيبتي على الإزعاج.. عليك استعادة نومك".

ردت بصوت مرتعش هادئ: "ليس هناك إزعاج، لقد نمت بعمق".

نظرت إلى الشرفة لتجد الشمس في لحظة الغروب، أعادت النظر إليه متعجبة: "ما أحلاه هذا المنظر الخلاب عندما تودعنا الشمس الممتزجة بالحمرة وكأنها تدمي لأجلنا".

آسر: "مبدعة حتى في نومك.. أنا أيضًا أعشق هذا المشهد".

اجتذبها آسر لالتقاط صورة وسط هذا المشهد البديع، فكانت كالزهرة المتفتحة لا يشوب صفاءها سوى الحيرة التي تغمر عينيها، والأسئلة الكثيرة التي تتخللها، فلم تثبت نظرات عينيها وإنما كانت ترتعش يمينًا ويسارًا كقطعة ناعمة من الحرير في مواجهة رياح عاتية.

اقترب آسر من حياة وتحسس شعرها الأملس، إلا أنها سرعان ما نفرت منه وابتعدت عنه، سألها في هدوء: "ماذا بك حبيبتي؟".

حياة في توتر: "لا شيء..."

صمتت قليلًا ثم استطردت حديثها باندفاع: "لا هناك أمر ما".

آسر في هدوء: "ما هو؟"

حياة: "لقد سمعتك وأنت تتحدث إلى فتاة، لا أعرف لماذا استثار فضولي أن أعرف إلى من تتحدث.. ربما ليس من حقي ولكن أشعر أن هناك أمر يهمني أن أعرفه".

صمت آسر وأخذ نفس عميق، ثم أجابها: "نعم، عليّ أن أخبرك شيئًا".

نظرت حياة إليه بلهفة وقالت: "من تلك التي كنت تحادثها".

آسر على عجل: "إنها زوجتي".

وقعت تلك الكلمة على مسامعها كقطرة ماء وقعت على نار متوهجة فلم تستطع أن تطفئها فزادتها توهجًا، سرت رعدة غريبة في جسدها، لم تعرف ما السبب، ولكن ربما لأنها أصبحت أمام نفسها خائنة، أظن أنها في تلك اللحظة اكتشفت أن ذاتها البعيدة ذبحت بسكين الخيانة.

سرعان ما قذفت آسر بالاتهامات: "لماذا تخونها إذن؟".

أجاب آسر بابتسامة ساخرة: "لأنها لم تستطع أن تشبع عاطفتي، كما استطتي أنتِ".

حياة بتهكم: "عاطفتك أم رغبتك أيها الرجل؟".

آسر: "أنا عشقت جسدك هذا الذي كان بين أحضاني يوماً كاملاً، لربما أنا لم أسألك عن زوجك، وكيف كنت تشعرين معه باللذة؟ أعتقد عزيزتي أن شعورنا واحد الآن، وخيانتنا واحدة، فنحن إذن شركاء في الأمرين: المتعة، والخيانة، وأنتِ فقط من تستطيعين تحديد مسمى العلاقة داخلك، أما أنا فلن أدع شيئًا يصرفني عن تلك اللذة".

حياة: "أتريد أن تضعني في مواجهة شرسة بين نفسي اللوامة والأخرى الأمارة، فماذا تظن أني سأختار؟ أن أظل بين ذراعيك ونتشارك في جريمتنا إلى الأبد، أتريد مني أن أستمتع بآلام امرأة أخرى، إن هي علمت بأمرنا؟! أنا لا أستطيع".

اقترب آسر من حياة، واجتذبها إليه بقوة، كأنه يريد أن ينتزع منها تلك الأفكار، وقبّل شفتيها، فأحكم القبضة عليها، كفارس يتقن إحكام لجام فرسه، وسرعان ما لانت هي معه، فقد اختطفها ثانية من واقعها المؤلم المليء بالأفكار المرهقة للذهن، تحركت شفتيه لتهمس في أذنها: "علينا أن نسرق من الزمن ما نستطيع من المتعة، فأنا حقًا لم أشعر بمتعة كما شعرت بها وأنا أعزف على أوتار جسدك الساحر، وأشرد في بحور عينيك الواسعة، التي تأسرني وترسلني إلى عالم آخر".

انغمسا سويًا في بحر الغرام، لينهلا منه ما شاءا قبل أن يسرقهما الوقت إلى موعد الرحيل والعودة إلى حياتهما الطبيعية، نست حياة كل ما شغل ذهنها من قليل، لتنعم كل حواسها بالسباحة في عالم اللذة بين ذراعي رجل يحترف الغوص في بحور جسدها، ليطفو على وجدانها شعور اللذة الممتزج بألم.

بمجرد أن وصلا إلى النشوة، أسرعت حياة في النهوض بعيدًا عنه إلا أنه اجتذبها نحوه، هامسًا: "دعيني أتضرع في محراب عينيك".

استوقفتها تلك الكلمات الرنانة، وخضعت لها، ولكن كان داخلها بركان من الغضب تجاهه وتجاه ذاتها التي استسلمت لأمر واقع، لم تعرف لماذا هذا الخضوع بعدما علمت أنه كغيره من الكثير من الرجال خائن، يخادع زوجته في الهاتف بكلمات مخدّرة، بينما هو يخضع بين ذراعي امرأة أخرى.

في الأغلب هي تعرضت في حياتها المسبقة لتلك الخيانة، وربما تكون سبب صدمتها، ولكنها لا تود أن تشغل ذهنها طويلًا بهذا الأمر، لأنها قررت سلفًا أن تستمتع بحياتها الجديدة، لم تتريث كثيرًا حتى لفتت انتباهه إلى أن عليهم الاستعداد للرحيل حتى لا تتأخر عن زوجها.

ذهبت إلى الحمام لتغتسل، يبدو أن المياه أنعشت ذهنها، ففكرت فيما حدث، وانتابها شعور غريب بأن جسدها قد عشق لمساته، ولكن روحها ترفض روحه، وفؤادها ينفر منه، ولكن كان عليها أن تستعد للعودة لأمير صاحب العقل الواعي والتفكير الطبقي، فها هو الآخر تشعر معه بالود والامتنان لأنه سبب ما هي فيه من بذخ إلا أنها لا تشعر معه بأمان أو عاطفة.

هكذا كانت ترى الأشخاص غير مكتملين، كما الأشياء، فهي ترى أنه لا يمكن لشخص واحد أن يلبي جميع احتياجاتها، فقررت الاستمرار مع هذا الرجل الذي حفظ سرها ومنحها كل ما تحتاج من أموال ومستندات رسمية، ووهبها حياة كريمة، كما أنها وجدت أن عليها الاستمرار مع ذاك الرجل الذي يشعرها بأنوثتها ويجعلها تنفصل عما يؤلمها من هذا الواقع، لتستعيد نشاطها.

خرجت حياة بعد الاستحمام أكثر نشاطًا وهدوءًا، ونزلا من الشقة سويًا، وهي تتأمل جمال الطبيعة المبهج النقي، الذي لا يخبئ أي شر أو أذى، أما البشر فهي تراهم خطائين، ويحملون جزءًا كبيرًا من الأنانية بداخلهم، ولكنها قالت في نفسها: "إن كانت امرأة واحدة لا تكفي، فإن رجلًا واحدًا أيضًا لا يكفي".

التفت إليه فجأة، وسألته بجدية: "هل تحب زوجتك؟".

تريث آسر قليلًا قبل أن يرد: "نعم.. ولكن هي لا تستطيع أن تلبي رغباتي، لا أشعر معها بهذا العشق، يبدو أن صاحب مقولة امرأة واحدة لا تكفي صائب مئة في المئة".

شردت حياة في حديث قصير مع ذاتها: "ياله من رجل أحمق، فلربما تكون زوجته تشعر نفس شعوره، ولعلها أيضًا تفعل نفس فعلته، دون أن يدري، فكما تدين تدان".

- "لالا.. كفي عن هذا التفكير على التو، إنك تتحدثين عن امرأة أخرى، ليس عليك أن تظنين سوءًا في امرأة مثلك".

- "أنا لا أظن سوءًا.. ولكن أليس هذا من حقها أن تفعل كما يفعل؟".

- "دعك من هذا.. عليك أن تستمتعي بهذا الوقت".

عادت حياة إلى النظر لآسر، بعد هذا الحوار القصير مع الذات، ولكنها تركت أسئلتها الجدلية، واكتفت بابتسامة هادئة، واستأذنته في استقلال تاكسي ليوصلها إلى المنزل، وبالفعل أوقفه لها واستقلته و انصرفت.

طوال فترة استقلال التاكسي فضّلت حياة الصمت والتأمل في الطبيعة: السماء وقت الغروب.. المساحات الخضراء التي تتخلل الطرقات.. المباني.. السيارات.. الأشخاص.. الشوارع مزدحمة بالسيارات، مع قليل من البشر.

بمجرد دخولها وجدت أمير يتناول العشاء ودعاها للجلوس معه، لكنها اعتذرت له بسبب الإرهاق، وصعدت لتنام في هدوء، إلا أن صوت رنين هاتفها عكر صفوها، نظرت إلى الشاشة.. إنه أيمن.

تنهدت حياة، وقالت: "يبدو أن الشقاء سيبدأ، فمن الصعب أن تأخذ كل ما تريد من الحياة دون عناء أكبر"، ولكن قررت أن تصمد حتى تستمر سعادتها، وتحقق كل أحلامها، يومها علمت أنها ستتنازل كثيرًا ولكنها عزمت

أن تتعامل مع الأمر بسخرية حتى تحد من قسوته، فضحكت واستأنفت حديثها مع نفسها: "وعليّ أيضًا أن أعدل في الخداع كما يفعل الرجال".

لم تطل حياة التفكير، وأجابت على الهاتف بصوت منهك: "ألو".

أيمن: "ياله من صوت عذب ساحر مثير".

حياة: "أتاهب إلى النوم، ولكن لا أستطيع ألا أرد عليك".

أيمن: "و أنا لم أستطع النوم دون سماع صوتك هذا الحنون".

حياة: "أشكرك".

أيمن: "دعينا من تلك الكلمات التي لا محل لها بيننا، أريدك حبيبتي لا حاجز بينا ولا فارق، لقد نقشتي بيديك الناعمة صورتك داخل قلبي، فأصبحت أنبض بعينيك".

حياة: "يالها من كلمات رنانة، يبدو أنك فنان في المغازلة أيضا وليس على اللوحات فحسب".

أيمن: "وهل يستطيع أن يصمت الأبكم أمام هذا الجمال الخلاب؟! فما بالك بي".

حياة: "لم أعد قادرة على تحمل تلك الكلمات، لقد أرهقتني كلماتك، دعني أستريح قليلًا، وسأحادثك فور استيقاظي".

أيمن: "سأشتاق إليك".

صمتت حياة قليلًا، ثم ردت بشيء من البرود: "و أنا أيضا".

أغلقت حياة الهاتف ووضعته جوار رأسها على وسادتها واستسلمت إلى نوم عميق.

استيقظت حياة على صوت رنين هاتفها، نظرت حولها مستعلمة عن الوقت، فكانت تشعر أنها نامت بضع دقائق لكن الرنين خطف عمق نومها، نظرت إلى هاتفها.. إنه أمير، فأجابت: "ألو".

أمير: "صباح الخير".

حياة: "صباح؟ أشعر أنني لم أكمل ساعة في نومي".

يضحك أمير ثم يقول بنبرة حاسمة: "لقد تجاوزتي ١٢ ساعة حبيبتي".

حياة: "يا إلهي.. ما كل هذا النوم، لماذا لم توقظني؟".

أمير: "شعرت أنك متعبة وبحاجة إلى النوم".

حياة: "أشكرك حبيبي، سأحاول النهوض".

أمير: "حسنًا حبيبتي، أعلم أنك منشغلة مع لوحاتك، ولكني اشتقت إليك كثيرًا وأود الحديث معك".

حياة: "عذرًا حبيبي لأنني انشغلت عنك، ولكن بالتأكيد سنتحدث كما تشاء".

شعرت حياة بصداع شديد وألم عنيف في رأسها، ولكن قاومته ونهضت لتتناول مسكنًا، وتنزل لتتناول الإفطار مع فنجان قهوة عله يفيقها.

استعادت حياة نشاطها وحيويتها وأطالت التامل في الطبيعة الخلابة، ثم لم تلبس أن أسرعت لتأتي بأدوات الرسم إلى حديقة المنزل، وانهمكت في الإبداع، وسطرت على اللوحة ما يشغل ذهنها ويغزو وجدانها ممتزجًا بضي الطبيعة.

عكفت حياة على اللوحة أيامًا حتى انتهت منها، وكانت بين الحين والآخر تواصل حديثها مع أمير وآسر و أيمن، وتخبرهم أنها منشغلة بالرسم، حتى لا يشعر أحدهم بأنها تغيرت معه.

عقب انتهائها من اللوحة التي رسمتها بأكملها في حديقة المنزل، طلبت من الخادمات رأيهن فيها، ثم طلبت منهن مساعدتها في نقلها إلى الحجرة، وبمجرد وصولها الحجرة استمعت إلى رنين هاتفها التي تناسته وهي مستغرقة داخل لوحتها الفنية.

التقطت الهاتف.. إنه أيمن، لم تجب وإنما شكرت البنات على مساعدتها واطمئنت على اللوحة ثم أغلقت حجرتها، لتحادث أيمن بحرية، هي لم تكن تخوّن البنات ولكنها كانت تأخذ احتياطاتها ليس أكثر، وأيضًا تخشى على مشاعر أمير، وكرامته أمامهن.

أيمن: "أتودين أن تحرمينا من سحرك سيدتي؟".

تتبسم حياة: "أهلًا بك عزيزي".

أيمن: "لقد هاتفتك كثيرا حتى قلقت عليك أو ظننت أنك لا تودين محادثتي".

حياة: "لا على الإطلاق، أنا كنت سأحادثك في أمر هام ولكن اختطفتني لوحاتي وفرشاتي، ولم أستطع أن أهرب منهم سوى بعد إخراج كل ما مشاعري على اللوحات".

أيمن: "إذن سأنتظرك اليوم.. ما رأيك؟".

حياة: "أين؟".

أيمن: "سأفتتح معرض أحد تلاميذي في الأوبرا".

حياة: "حقًا؟؟كم تمنيت أن أقيم معرضًا بها".

أيمن: "سيحدث يا حبي، ولكن أسرعي لم يتبق سوى ساعة ويبدأ الحفل".

حياة: "حسنًا، سأستعد للنزول".

أيمن: "اتفقنا".

وصلت حياة إلى الأوبرا لتجد أيمن بانتظارها على الباب الرئيسي ويأخذها إلى معرض الفنون بالداخل، لتبحر في عالم آخر، ما بين تأمل الفن العميق على اللوحات، وبين تخيل نفسها بدلا من الفنان صاحب المعرض.

لفت شغف حياة بالمعرض انتباه أيمن وتبسم بسمة لطيفة، وكأنه خطط في ذهنه لشيء ما، شعرت هي بذلك، ولكنها لم تعير ذلك انتباها، فهي مستعدة لتقديم أي شيء مقابل الوصول لحلمها.

قطع حبل أفكارها، اتصال أمير، فتذكرت أنها لم تخبره أنها ستنزل، فردت عليه بصوت منخفض حاني يتخلله شعور بالأسف: "حبيبي عذرًا.. كنت أرسم في الحديقة وتناسيت الهاتف، وبعدها ذهبت لأحضر معرضًا في الأوبرا".

أمير: "المهم أنك بخير".

حياة: "الحمد لله حبيبي، لقد انتهيت وسأعود للمنزل حالًا".

أمير: "حسنًا.. احترسي وطمئنيني عليك".

حياة: "أشكرك حبيبي".

أغلقت الهاتف، و اقتربت من أيمن، لتخبره أن عليها أن تمضي، لأن لديها طاقة تود أن تخرجها في اللوحة، فيو افق على مضض ويطبع على خدها قبلة حانية، شعرت أنها ممتزجة برغبة، ولكنها لم تبالي، ومضت.

لم تكد تخرج من باب الأوبرا حتى تجد اتصالا من آسر، يود لقائها في شقته، فاستجابت، واستقلت تاكسي للذهاب إليه، وبعد أن قضيا وقتًا ممتعا وصل الديلفري ومعه وجبات الدجاج المقرمشة، وجلسا يتناولان الطعام، وهو كعادته يتغزل بها، حتى قطع كلامه اتصال هاتفي من أمير، استأذنت حياة منه بأن ترد وقد تذكرت أنها تأخرت بعد أن أخبرته أنها ستعود، ردت بارتباك: "عذرًا حبيبي لقد خطفني سحر التجول في شوارع العاصمة، سأعود حالًا".

لاحظت حياة علامات الضجر على وجه آسر، وكاد أن يختطف منها الهاتف، وبمجرد إنهاء المكالمة، سألها: "زوجك؟"

حياة: "نعم".

آسر: "أتعرفين أنني أصبحت أغار منه عليك الآن؟".

حياة: "لماذا؟"

آسر: "أشعر أنك ملكي أنا، وأشتاط غضبًا عندما أتخيل أنك قد تكونين بعد قليل في حضن رجل آخر".

"غرباء هم الرجال يعرفون منذ البداية أن امرأة يعشقونها ملك لغيرهم إلا أن طبعهم يحتم عليهم أن يعتبرونها أصبحت من ممتلكاتهم، يبدو أن الطبع غلاب كما يقولون، فالرجل أناني بطبعه يفضل السيطرة على كل نساء الكون، وكأنهن خلقن جميعًا لأجله وحده".. استغرقت حياة في تلك الأفكار، ولكن سرعان ما ردت على نفسها: "ولكن ربما أنا الآن أتقمص شخصيتهم، و أبادلهم الأنانية، وأخذ من كل منهم ما يشبعني فحسب، ربما يستحقون ذلك، ويبدو أنني لن ألوم نفسي طويلًا على ذلك، فهم دائما يؤكدون لي أنهم يستحقون الخيانة كما يخونون هم".

استفاقت حياة من شرودها بلمسات آسر الحانية على يديها، هامسا بأذنها: "إلى أين ذهبتي يا حبيبتي؟".

أجابت حياة: "أفكر فيما تقول.. حبيبي.. للأسف الوقت معك يمر سريعًا، علينا أن نرحل".

أسر: "لا أريد أن أعطلك، ولكن حقًا سأشتاق إليك كثيرًا.. سأحادثك لأطمئن عليك بعد وصولك".

ابتسمت حياة بلطف، قائلة: "حسنًا.. سأنتظرك حبيبي".

و انطلقت إلى الشارع لتستقل تاكسي ينقلها إلى المنزل، وبمجرد وصولها نظرت إلى الساعة.. إنها الحادية عشر.. دخلت وسلمت على الخادمات وجلست قليلًا مع أمير ثم اعتذرت له واستأذنت للنوم.

(٨)

استمرت حياة على هذا الوضع عدة أشهر، ليس بحياتها سوى الانعكاف على الرسم، والحديث إلى الثلاث رجال بلطف ودلال، وهي تتلذذ بأنها في طريقها للوصول، لم يجد عليها أي جديد، حتى استقظت في يوم على مكالمة من أيمن.

حياة: "ألو".

أيمن: "حبيبتي، لقد عرضت لوحاتك على كبار الفنانين وأعجبوا بها، و أفكر جديًا أن أجعلك تقيمين معرضًا في الأوبرا".

صرخت حياة وقالت: "حقًا أنت أعظم فنان في العالم".

أيمن: "وماذا أستحق لهذا؟".

حياة: "لك ما تشاء".

أيمن: "أنا كلي لك حبيبتي.. أتمنى أن تقبلي عزومتي على الغداء".

حياة: "حسنًا.. أين؟".

أيمن: "في مكتبي حتى تنتاقش في أمر المعرض".

حياة: "حسنًا.. ولكن متى؟ و أين؟".

أيمن: "في الزمالك، وليكن الساعة الرابعة".

حياة: "و أنا قريبة منك، لن أتأخر عنك عزيزي".

أيمن: "سأنتظرك.. لا تتأخري عني حبيبتي".

حياة: "حسنًا".

ذهبت حياة في الموعد المحدد بعد أن صوّرت جميع لوحاتها، وتجملت وفردت شعرها، و انطلقت لتستقل تاكسي إلى مكتبه حتى لا تفسد هيئتها.

بمجرد دخولها المكتب رحب بها أيمن ترحيبًا جمًا، وأخبرها أنها جاءت في موعدها.

نظرت حولها لتتأمل جمال اللوحات المبدعة المنتشرة على جدران المكتب، أخذتها الألوان المريحة لديكور المكتب، حتى قطع تأملها صوت أيمن: "هيا نتناول الغداء، طلبت لك سمكًا مشويًا".

حياة: "حسنًا".

تناولا السمك وأنصت لها أيمن وهي تتحدث عن حلمها بأن تقيم معرضًا في متحف الفن الحديث في الأوبرا، ويحضره كبار الفنانين.

تركها أيمن تعبر عن كل ما تتمنى في هذا المجال ثم ابتسم وقال لها: "حسنًا حبيبتي كل هذا بسيط جدًا، أعدك أن أحققه لك في أقرب وقت ممكن، ولكن استعدي جيدًا عليك أن تكرسي حياتك الأيام المقبلة للرسم، اخرجي كل طاقتك".

حياة: "الرسم هو معشوقي الأول، والواحة التي أنفس بها عن نفسي، لن أتوان في أن أوهبه حياتي كلها".

رد عليها أيمن بابتسامة فيها شيء من المكر، ثم أرشدها إلى مكان الحمام لتغسل يديها بعد الطعام.

دخلت حماما فاخرًا يغلب عليه اللون الذهبي، منقوشًا برسومات فرعونية أصيلة، تبعث روح الإبداع في كيانها.. "الله.. رائعة تلك الرسومات الخلابة"، هكذا عبرت حياة عن إعجابها الشديد بهذا الفن.

أيمن: "أشكرك صغيرتي، إنه من صنع يداي".

ازدادت حياة إعجابًا بهذا الفنان المدهش.. "إنه عالمي حقًا".

جلس معها على أريكة سوداء عريضة في موازاة مكتبه، فتحت هاتفها لتريه اللوحات التي رسمتها، فتأملها وهو يتحسس يديها، ويتوغل بين أصابعها: "تلك أصابع فنانة مبدعة لا شك".

تحسست أنامله جسدها برفق وخفة، وهو يغازلها: "أنت جميلة حقًا، جسدك مبهر، لوحة فنية خارقة متناسقة، تدفعني لأن أتعمق فيها، تجذبني لأن أغوص داخلها لأفهمها".

اكتفت حياة بالصمت والإنصات لكلماته العذبة التي تعلي ثقتها بنفسها، ولكنها لم تشعر سوى بتلك الكلمات أما لمساته فلم تشعر بها مطلقًا، هناك شيء ما كان ينفرها منها، وشعور بالاشمئزاز ينتابها، ولكن ليس عليها أن تظهر له ذلك فهي بحاجة إليه، وإرضاء الحاجة عندها أهم من أي شيء آخر.

اقترب أيمن منها وتحسس أنفاسها، وشعورها بالنفور يتزايد، فقد شعرت أن أنفاسهما غير متجانسة، لم يكن بينهما ما يسمونه "كيمياء" إلا أنها اضطرت للاستسلام للمساته، وأظهرت ارتياحًا له، حتى تصل إلى ما تريد، تركته يغوص بين شفتيها، وهي تشعر أنها تود لو مزقت شفتيها تلك التي وهبتها لمن لا تشعر به.

رسم بصماته في جسدها المرهف، و اقتحم حرمته، دون أن يدري أن روحها هربت من ضلوعها، حتى لا تخدشها أنامله، تألمت حياة وهو ينغمس بنعيم جسدها، فهي لا تشعر بأي لذة ولم تحرك لمساته تلك أي غريزة داخلها.

ياله من جرم وإهانة أن تفضل امرأة التضحية بجسدها لينعم فيه رجل لا يقبله، على أن تضحي برغبتها في النجاح والشهرة، فلقد تركته مستسلمًا لأنفاس لا يألفها، ولمسات تنهش منها براءتها، لتشعر بهذا الإحساس الذي قد يعتري "العاهرة" عندما تخضع لعلاقة من أجل نفحة من المال.. شعور لعين حقًا ولكن ليس عليها سوى أن تتقبله.

وما أصعب أن تكون امرأة بين يدي رجل لا تشعر به مطلقا، فليس هناك انجذاب عاطفي يقربهما وليس هناك كيمياء حسية تربطهما، ولكن عليها أن تتحمل هذا الشعور من أجل النجاح، فلكل لذة ثمن لابد أن تدفعه.

نزلت حياة من مكتب أيمن شاردة الذهن تشعر بأنها حانقة على نفسها، ناقمة عليها، فكم هو صعب أن تمنح جسدك لشخص لا يحرك فيك شعورًا، ولكنك تجبر نفسك على الاستمرار لهدف آخر، ودت لو تعاقب نفسها على ما فعلته بجسدها، فلقد أتقنت فصل الروح عن الجسد عندما ارتضت بهذا الوضع، وأصبح لديها كل شيء مباح للوصول إلى هدفها، ولكنها الآن تمنت لو تستطيع أن تتبرأ من جسدها هذا وتتطهر منه.

شعرت حياة أنها ارتكبت خطية لأنها فعلت شيئًا لم تشعر به، امتزجت مع كيان لا تشعر أنه يكملها، استسلمت لرجل رغمًا عنها، خطيتها أنها غصبت جسدها وروحها على الإذعان لشيء هي نفسها لا تود أن تفعله، فيالها من حماقة أن تفعل ما لا تريد ولا تشعر من أجل أسباب واهية.

قررت حياة أن تسير في الطرقات والشوارع وتتعامل مع الطبيعة، علها تفهمها، أو تطهرها من خطيئتها تلك، تأملت في السماء المزدحمة بالسحب الغامقة، وكأنها أرادت أن تسلط غضبها عليها، نظرت إلى مياه النيل التي هاجت فجأة لحظة الغروب الحزينة، فكل ما رأته كان يعكس لها ذاتها، إنها الطبيعة تغضب كما تغضب هي على نفسها.

ما زالت تمضي في طريقها حتى كادت أن تصل إلى الأوبرا حيث شعرت بقطرات مياه تتساقط على يديها، فنظرت إلى السماء، إنها تقذفها بوابل من الأمطار، هكذا هي شعرت كأنها تدمع لأجلها، خفضت عينيها لتقع نظراتها على الرصيف، فوجدت سيدة عجوز منكمشة على نفسها ترتدي عباءة سوداء

اللون، ممزقة، كادت لا ترى ملامح وجهها الذي تحاول إخباءه داخل عباءتها الممزقة، لتحتمي بها من البرد، وهي تضع أمامها مجموعة من علب المناديل.

اقشعر جسد حياة من المنظر، وخلعت معطفها الأسود وذهبت إلى السيدة و انحنت عليها لتضعه على ظهرها، سرعان ما انفردت السيدة وبرز لها معالم وجهها الذي سرعان ما تحول من العبوس إلى الابتسامة، التي منحت حياة بعض الأمل والراحة، أشعرتها بسعادة أنستها ما أصابها منذ قليل، ما حمّسها لأن تذهب لتشتري بعض الطعام، وتحضره إليها.

شعرت حياة بقدر من السعادة إلا أن إحساسها هذا لم ينسها ما اعتراها من شعور سخيف، ولم تستطع أن توقف هذا الصوت المزعج الذي يحرك داخلها الشعور بالذنب على ما اقترفته، مضت أعلى كوبري قصر النيل، وهي شاردة الذهن، هائمة على وجهها، لم تعرف إلى أين تذهب، لتجد نفسها فجأة تصطدم برجل وتسقط عنه باقة الزهور التي يحملها.

التفتت حياة لتجد شابًا طويل القامة، رفيع، أسمر اللون، ذو عينين قاتمتا السواد، يبدو في أواخر العشرينات، يحمل باقة من الزهور والفل بين يديه، تسمرت أمامه وشعرت بانجذاب إلى عينيه ولكنها سرعان ما حاولت إنقاذ ما أوقعته.

حدّق الشاب النظر بها، ثم صاح متعجبا: "شمس!!".

نظرت إليه حياة باستنكار، وتقول: "من شمس؟ اسمي حياة".

اعتذر لها الشاب و انحني ليرفع الزهور، بينما هي تحاول السيطرة على ذاتها، واعتذرت له عما حدث، قائلة: "يمكنني أن أشتري منك كل هذا".

تحولت تعبيرات وجه الشاب إلى العبوس، ثم صرخ: "أنا لا أقبل العوض سيدتي، دعيني وشأني".

ولم يلبث أن انصرف مسرعًا، بينما ظلت حياة تنظر إليه متعجبة تصرفه حتى اختفي من أمامها.

استكملت حياة سيرها في صمت، ولكن شيء ما ينادي داخله: "مَن شمس؟ أربما تكون تلك أنا السابقة، هل هذا الشاب يعرفني؟ لا يمكن هذا".

- لا تخدعي نفسك عزيزتي، بماذا تفسرين تلك الرجفة التي انتابت قلبك عندما وقعت عينيك على عينيه.
- ربما شعور طبيعي بالإعجاب بشاب وسيم.
- لا، قولي إنك لا تريدين تذكر الماضي، لكنك على يقين أنك تعرفين هذا الرجل.
- لا يهمني هذا، دعيني وشأني.. سأنصرف إلى المنزل.

لم تستطع حياة الاستمرار في جدال مع ذاتها، التي تحاول مواجهتها بالو اقع الذي ترفضه، برغم أنه قد يفسر لها الكثير من الأمور التي لا تفهما، ولربما يكشف لها أشياء تساعدها على حل الصراع داخلها، ولكنها تريد فقط أن تغرق في بحر اللذات.

****

تقاطعه شمس: "عذرًا أبتي.. أنا لم أعد أفهم شيئًا".

صلاح: "دعيني أستكمل لك القصة وستفهمين كل شيء".

شمس: "ولكن أهي شمس؟ أم أنا حياة؟ لقد اختلط عليا الأمر، أشعر كأنها حياتي المستقبلية، ولست أنا حياتها السابقة".

صلاح: "لا يا صغيرتي، أنا أحكي لك القصة حتى تستفيدي لا أن توجهك، أو تسيطر عليك، دعيني أستكمل لك الحكاية".

شمس: "تفضل يا أبتي".

****

أسرعت حياة إلى البيت، وصعدت إلى غرفتها، وكأنها لا ترى أي شيء أمامها، ثم أسرعت إلى الحمام لتستحم بماء بارد وتطهر مما فعلته بجسدها، وتحاول أن تمحي آثاره العالقة بروحها، ثم اتجهت نحو السرير لتنام إلا أن جميع محاولاتها باءت بالفشل، ولم يصبح أمامها سوى أن تنهض لتخرج طاقتها تلك في الرسم، حتى الصباح.

شعرت حياة أنها بحاجة إلى أن ترى ذاك الشاب الجذاب، ولكنها منعت نفسها، حتى لا تقترب من الماضي الذي قررت أن تمحوه، قررت أن تخرج وتسير جوار النيل لتستلهم منه طاقة جديدة تساعدها على استرداد روحها.

ارتدت ملابسها، وهبطت إلى أسفل المنزل لتجد أمير يجلس في الصالة، التفت لها وسألها: "أين تختفين تلك الأيام؟ لماذا أنتِ منعزلة حبيبتي؟"

- لاشيء عزيزي، ولكني بحاجة إلى العزلة قليلًا لأنتهي من اللوحات، حتى أقيم المعرض الذي حلمت به.
- بالتوفيق حبيبتي، ولكن طمأنيني عليك دومًا.
- لا تقلق، أنا بخير، أيام قليلة و أتفرغ لك.

مضت حياة وتجولت في الطرقات، واشترت بعض الطعام ثم اتجهت إلى محيط الأوبرا لتقابل السيدة العجوز، لتهدئ من روعها، وجدها كما كانت عليه ليلة أمس، فجلست جوارها لتتناول الفطار.

تركت العجوز الأكل فجأة وثبتت نظرها في وجه شخص ما يقف وراء حياة، ثم قالت: "هيا يا أحمد تناول الفطار معنا".

- لست جائعًا أمي.

تنتبه حياة إليه إنه الشاب الوسيم الذي قابلته أمس، ترددت قليلا قبل أن تقول: "ألا تشاركنا في الإفطار؟!".

نظر إليها أحمد، وقال بلطف: "أشكرك، ولكننا لم نقبل الإحسان".

صعقت حياة للرد ولكنها سرعان ما تداركت الموقف، وقالت: "ليس إحسانا، أنا بحاجة إلى الأكل، ولا أستطيع الأكل مفردي، فأنا من أحتاج إليكم".

صمت أحمد برهة، ثم هز رأسه بالإيجاب، وقال: "حسنًا، تناولا الطعام، ولكني لست جائعًا".

تركهما أحمد ورحل إلى كوبري قصر النيل ليستكمل عمله في بيع الزهور لقصص العشق، التي يراها أوهام تخدع أصحابها.

جلست حياة مع السيدة العجوز ولكنها شردت في عزة هذا الشاب الوسيم، وترفعه عن أشياء ربما يكون هو الأكثر احتياجًا لها، أعجبتها شخصيته هذه التي ارتضت بالقليل و أبت أن تقبل ما هي في أشد الاحتياج إليه، سرعان ما قارنت بينه وبين نفسها وما فعلته هي في تقديم جسدها قربانًا لفنان ليأخذ بيدها إلى طريق النجاح، كم كانت تحتقر نفسها.

حاولت حياة الهروب من تلك الأفكار التي تطاردها، بأن تستأذن من العجوز لتمضي، على أن تعود إليها لاحقًا، عادت إلى منزلها، وظلت قرابة شهرًا معتكفة في المنزل لا تفعل شيء سوى الرسم ومحاولة استعادة ذاتها، مكالماتها الهاتفية تقلصت، وأصبحت لا تجيب إلا في الضرورة، علاقتها بأمير اقتصرت على تناول العشاء في صمت.

وبرغم انعزالها هذا إلا أن عيون أحمد ظلت تطاردها لفترة، فهي أدركت أنها حتمًا رأتها من قبل، وربما كانت بينهما قصة حب كبيرة، ولكنها لم ترد أن

تصدق ذلك، فهو فقيرولن يجديها في شيء، كما أنها ليست بحاجة للعودة إلى ذكريات مؤلمة.

بعد تردد، قررت حياة الخروج من عزلتها لتلتقي بأحمد، لم تعرف لماذا ترغب في رؤيته، ولكنها كانت تفي بعهدها بأن تفعل كل ما تريده مهما كانت عو اقبه.

ذهبت حياة مع طلوع الشمس إلى كوبري قصر النيل، وظلت تبحث عنه يمينًا ويسارًا حتى وجدته يجلس أمام النيل ويعطي ظهره لها، اتجهت إليه في هدوء وخبطت برفق على كتفه، نظر إليها بابتسامة رضا وترحيب.

- هل يمكنني الجلوس جوارك؟
- أظن أن المكان لا يليق بكِ.

نظرت له بتحدٍ ثم جلست جواره.

شعور بالنشوة غمر حياة وهي جالسة جواره، هناك شيئا ما داخلها تجاهه، جعل روحها تنطلق من جسدها لتطهرها، رائحة عطر ذكية فاحت من جسده أغمرتها بالراحة والسكينة، عادت إليها براءتها الساحرة وبدت كأنها طفلة لم تتشرب من مرارة الحياة بعد، ولم تذق عذابها.

لقد وقعت فريسة لهذا الذي يدعو الحب من اللقاء الأول، وربما ليس كذلك ولكنها لم ترد أن تعرف إن لم يكن، فكم رأته إحساسًا ممتعًا شهيًا، أبت أن تتركه، تمنت لو أنها أمسكت بيديه، شعور غريب انتابها لتسأل نفسها ماذا فعلت لكي يكافئها الله بتلك الهدية الرائعة.

أطالت النظر في عيني أحمد الصارمة شعرت أنه أول رجل تراه في حياتها، فقد كانت تعشق سمار الرجل وخشونته وتهيم بعزته وكرامته.

غلبت بسمة خفيفة على ملامح وجه أحمد العابس، لتذهل حياة، ولم تستطع أن تمسك لسانها عن أن يعبر عن إعجابه، فقالت: "سبحان من أبدعك".

علامات الدهشة اقتحمت وجه أحمد، قائلا: "ماذا تقصدين؟".

حياة: "أقصد تلك اللوحة الربانية البارعة...".

قطعت حياة كلامها، فقد شعرت بأنها أخطأت وتسرعت في التعبير عن شعورها، ولكن سرعان ما استعادت اتزانها، واستكملت: "عذرا ولكني أتأهب لمعرض لوحات فنية، وعندما رأيتك غلب عليّ فني وجعلني أتأملك كلوحة فنية".

نظر إليها أحمد بتمعن إلا أن علامات التعجب والدهشة تزايدت، وشعرت أن أفكارًا كثيرة جالت في ذهنه وأربكه إحساسه تجاهها بالإعجاب.

ما زالت حياة تواصل حديثها إلا أنها أعلت صوتها فجأة ليختلط به الحماسة، قائلة: "أريد أن أرسمك".

لم يجب أحمد سوى ببسمة تحمل الموافقة وتلمع عيناه لتعطيها بريق أمل.

حياة: "سأعود إليك الغد ومعي أدواتي".

نظر إليها بلطف، وقال بعد تريث وكأنه تردد قبل أن ينطق: "هذا شرف لي".

غمرت السعادة عينا حياة فهي أعدت تلك موافقة على مبادلتها المشاعر، فقالت: "أشكرك".

كلل أحمد صدرها بعقد الفل، وتبادلا البسمة ورحلت حياة إلى منزل أمير.

مشاعر جميلة غمرت صدرها، ولكن سرعان ما أفسدها صراعها الداخلي العميق بين روحها وجسدها وما بين ذلك وذاك حياة مجهولة لا تتذكرها، فيذكرها ذهنها بهذا الفارق بينه وبينها، إلا أنها سرعان ما أجابت عليه: "أي فارق هذا، هو بلا مأوى وهذا لا ذنب له فيه، قد يكون ذنب الطبيعة وخطيئة البشر، أما أنا فمجهولة الاسم والنسب و أيضا لا ذنب لي فيه، إنها الحياة عندما تلعننا ونحن نتشبث بها".

- ولكن أنتِ تعيشين في قصر يحقق لك كل أمانيك ويهيئ لك حياة كريمة، لن تستطيعي هجر كل ذلك لتذهبي إلى المجهول وتصبحين بلا هوية وبلا سكن أيضا.
- سأعود إلى أحضان الطبيعة تشكلني كيفما شاءت.
- وحلمك؟ ولذتك؟ وجسدك هذا أليس له حق عليك؟
- دعيني من هذا الجدال الذي لا طائل منه، لقد شعرت معه بما لا أشعر مع أمير أو آسر أو أيمن.
- ولكن عليك أن تستكملي ما بدأتيه حتى تبلغين حلمك، لا يمكن أن تضيعي كل ما فعلتيه، معرض يعرف منه اسمك كبار الفنانين.
- سئمت مما أفعله بجسدي من خطيئة.
- ليست خطيئة و إنما هي لذة بداخل كل إنسان، هكذا جعلتنا الطبيعة، فلا تحاولي أن تتمردي عليها حتى تنقلب عليك.
- لكنني أحببت.
- ليس عيبًا، ولكن تريثي حتى يقضي الله أمره، فأنت لن تستطيعي أن تضحي برغبة نظير أخرى، ولن تجدي في شخص هذا الكمال، اتركي

تلك الأفكار حتى تنتهي المعرض فلربما يمنحك الأموال مع النجاح ويغنيكِ عن كل هؤلاء.

- حسنا، دعينا من هذا، لا أريد أن أخرج من حالة السكر تلك حتى أهيم في لوحاتي.

عادت حياة إلى البيت مسرعة، بعد هذا الحوار الذاتي، وكأنها خشيت أن تضيع عليها الحالة دون أن تستغلها، وصعدت إلى غرفتها وداعبت لوحاتها بالفرشاة لتخرج أجمل ما رسمت عن جمال الطبيعة ولقاء السماء بمياه النيل المتوجة بأكليل من الزهور.

سبحت حياة في بحر الفن حتى سمعت طرقات على الباب، سمحت بالدخول.. إنه أمير.

ابتسم لها وهو ينظر إلى اللوحات المنتشرة في بقاع الحجرة قائلًا: "فنانة حقا".

ردت حياة عليه ابتسامته: "أشكرك.. هل أعجبتك اللوحات؟".

أمير: "جدا، ولكن ليست لوحاتك فحسب، لا أريد أن أزعجك كثيرا عما تفعلين ولكن أود الحديث معك في أمر هام".

حياة: "حسنا.. تفضل".

أمير: "هل تسمحين لي بأن أتناول العشاء برفقتك في حديقتنا".

هزت رأسها بالإيجاب وهي في حيرة من أمره، داخلها هاجس يخيفها منه، ماذا قد يكون هذا الأمر الذي يحتاج طقوسًا خاصة؟!

نزلت حياة معه إلى الحديقة وجلسا سويًا لتناول العشاء في صمت، ثم تناولا فنجانين من القهوة، وبدأ أمير حديثه معها، قائلا: "هلا أخبرك بأن عينيك اختطفتني منذ أول لحظة رأيتك فيها، قد أكون محظوظًا لأنني رأيتك

قبل فقدان الذاكرة وبعدها، ولا زلت على رأيي بأنك راقية وجميلة بكل أحوالك".

ابتسمت حياة، وكأنها تدعوه إلى الاستكمال بعد أن غمرها بعض القلق.

استطرد أمير: "تعلمت من عملي المباشرة، لذا فأنا قررت أن أخبرك أنني أحبك وأرغب في الزواج منك".

وقعت تلك الكلمات على سمعها كالصاعقة، لم تعرف لماذا انتابها كل هذا الحزن لمجرد أنه أخبرها بما يسعد قلب أي فتاة عندما تعلم أن أحدهم معجب بها حتى وإن لم ترغب به، مجرد إرضاء رغبتها في سماع مثل تلك الكلمات.

ربما تزايد القلق داخلها فجأة وشعرت باقتراب النهاية، ارتسمت في ذهنها صورة أحمد وبدت جلية أمام عينيها عينيه السوداء اللامعة، لم تذكر في تلك اللحظة من آسر وأيمن سوى خطوط لا ملامح لها، ولكن كل هذا وقف حائلًا أمام طلب أمير الذي يحرمها من كل ذلك.

حاولت حياة أن تدفن كل تلك الهواجس داخلها واكتفت بابتسامة، ونظرات متقطعة ألقتها عليه.

نظر إليها أمير باهتمام: "يبدو أن طلبي أزعجك".

حياة بتردد: "مطلقًا، ولكنك فاجئتني فحسب".

لمس أمير يدها المرتعشة، وقال: "اهدأي قليلا سيدتي، وأخبرني عما يقلقك، لماذا كل هذه الحيرة؟! هل أغضبتك في شيء؟".

شعرت حياة أنها في موقف فاصل وصعب، وأن عليها أن تتمالك نفسها وتسيطر على مشاعرها حتى لا يكشف أمير سرها، فهو يأويها ويلبي لها كل طلباتها، فهي حتى الآن لا تستطيع المجازفة بفقدانه.

سيطرت حياة على نفسها قليلًا، وقالت: "حبيبي.. أنا فقط كنت أتمنى أن أكون قد استرديت ذاكرتي قبل أن تطلب مني ذلك، أنت أعطتني أكثر مما أستحق، ومنحتني حياة أخرى، ولكن أخشى أن تكون حياتي الأولى لا تليق بك".

ابتسم أمير ابتسامة سخرية، وقال بثقة: "أنا على يقين أنك جديرة بي، وإلا لم أكن لأستضيفك في حياتي كلها، نظرتي لا تخيب أبدًا، مظهرك الأول أكد لي ذلك".

"ما زالت الطبقية تتحكم في كلماته، سيبقى كما هو ويستحق ما أفعل به، مثل هؤلاء علينا أن نستغلهم وضمائرنا مرتاحة كما يستغلون البسطاء"، هكذا حدثت حياة نفسها: "عليّ أن أماطل معه حتى أفتتح المعرض وأستطيع الاعتماد على نفسي".

عاودت النظر إليه وقالت: "حسنًا، ولكن أمهلني بعض الوقت حتى أتم المعرض، فهذا الموضوع يؤرقني، أشعر أن كل تفكيري الآن منصب عليه، وأود أن أو افق على هذا العرض بكل وجداني وكياني كما تستحق".

استراح أمير إلى تلك الكلمات التي ترضي غروره، وقال: "حسنًا حبيبتي، كما تريدين وسأفعل ما أملك لتنجزي المعرض في أقرب وقت، لقد رأيت لوحاتك وأدهشتني، أنتِ حقا فنانة رائعة".

حياة: "أشكرك".

تنفست حياة الصعداء وكأنها كانت تخوض معركة بقاء، واستأذنت أمير لتذهب إلى النوم لأنها بحاجة إلى راحة حتى تستطيع استكمال اللوحات.

صعدت حياة إلى غرفتها وألقت نظرة على لوحاتها كأنها تودعها قبل النوم، واستلقت على السرير ونظرت كعادتها في خطوط السقف، ولكنها لم

تفكر فيما دار منذ قليل و إنما تذكرت أنها ستلقي أحمد بالغد، لتنام مرتاحة البال، مطمئنة.

****

شمس: عذرا أبتي على مقاطعتك ولكن الظهر يؤذن سأقوم لأحضر لكن فنجانا من القهوة وأذهب لموعد عمل قصير، ولن أتأخر عليك.

- حسنا بنيتي، و أكون أيضا صليت الظهر.
- تقبل الله يا أبي.

تذهب شمس لتردي ملابسها ولكن تتذكر ما حدث المرة السابقة فتأخذ هاتفها لتؤكد الموعد.

- صباح الخير.
- صباح النور.. قبل أن تسألي أنا بانتظارك أمام المكتبة.
- حسنا ربع ساعة و أكون أمامك.

ضيق الوقت لم يترك لشمس الفرصة لتفكر طويلا، فذهبت مسرعة إلى المكتبة، لتجد شابًا و اقفا ظهره إليها يبدو على ملابسه الأناقة والرقي، تقترب منه: "صباح الخير".

يلتفت لها لتتغير ملامح وجهها وتسبح عينيها في الذكريات.. "عادل".

- نعم عادل من ذكريات الجامعة التي ألقيتها خلفك.
- لا تقول ذلك.. أنا أكون سعيدة جدا عندما أتذكرها.
- لكن هل تكونين سعيدة أيضا عندما تتذكرين باسم؟

تشرد شمس طويلا.. "أنا لم أنسه حتى أتذكره، لا أنكر أنني من تركته ولكنه لم يخرج من قلبي".

- لذا قررتي أن تتركيه لترتبطين بمن هو أغنى منه؟

تقع تلك الكلمات عليها كصدمة مست شيئا داخلها.. "وحتى إن كان الأمر كذلك، فعلاقتنا كانت محكوم عليها بالفشل، ربما أخذ قلبي وقضيت معه أسعد لحظات حياتي، وجمعتنا لوحات جميلة.. فهو حقا فنان مدهش، ولكن ينقصه المال".

- وخطيبك؟
- ماذا به؟
- تحبينه؟
- الحب ليس كل شيء، أنا أريد حياة كاملة، دعنا من لغة العواطف، فلنتحدث بشكل واقعي، هو من عائلة غنية، ورجل أعمال، وناجح، وسأعيش في مستوى أعلى مما أنا عليه، وسيحقق لي كل ما أريد، أما باسم فهو فنان، والفن لم يعد يجني أي ثمارا بل يحتاج أموالا ليظهر إلى النور.
- وهل تعرفين أن خطيبك يستغل نفوذه ذلك الذي تتحدثين عنه من أجل ابتزاز البنات اللاتي يعملن معه والتعدي عليهن؟! ومعي كل الدلائل والصور ومقاطع الفيديو التي صورّها بنفسه لضحياته.
- كيف؟ ومن أين أتيت بذلك؟

- تعلمين أنني لم أكن هاويا الرسم مثلكما، فأبي قرر أن يفتح لي شركة متخصصة في الكاميرات التي أهويها، وبالصدفة جاء إلي خطيبك ومعه كاميرا تجسس قال إنها لا تعمل وعندما فحصتها وأعدت تشغيلها وجدت كل البيانات التي صورها، ربما أنا أخطأت عندما أخذت نسخة منها، ولكن خوفي عليك دفعني لذلك عندما وجدت جميعها لفتايات.

تجهمت شمس وهي تستمع إلى تلك الكلمات التي آثارت استيائها.. "حقا لقد صدمت بك.. كيف تخون مهنتك تحت أي ظرف؟ لا أريد أن أرى شيئا وكل هذا لا يعنيني، مضطرة للذهاب".

لم تفكر شمس كثيرا فيما فعله خطيبها لأنه لا يهمها ولا تعنيها تلك الأشياء التي تعدها بسيطة لا تمسها، وإنما غضبت من عادل لأنها تعلم عنه الأمانة، وربما حزنت لأنه مس جرح لم تستطع مداواته بعد، فهي لا تزال تحب باسم، ولا تزال تحيا بروحه، ولكن يبدو أنها مستمرة في نفس صراع حياة.

تعود إلى المنزل وهي أكثر اشتياقا لمصير حياة الذي علمت أن مصيرها سيكون مثلها، سيطر على ذهنها الفضول بمن ستختار حياة فلربما يساعدها ذلك على الاختيار.

تحاول إخفاء كل تلك المشاعر وتعود بابتسامة هادئة إلى مكتب أبيها، ليكمل لها حكاية حياة التي أصبحت أكثر شغفا لها.

(٩)

استيقظت حياة هادئة البال من نومها مع آذان الفجر، كأن صوت داخلها يناديها لهذا اليوم المشرق الذي تقابل فيه أحمد، شعرت أنها أكثر حيوية وإشراقًا من أمس، سرعان ما نهضت وفتحت شباك غرفتها لتنتظر ميلاد الشمس وهي تتأمل السماء وتدرج ألوانها.

غسلت وجهها وارتدت ملابس رياضية وأخذت أدوات الرسم في حقيبة وتناولت فنجان قهوة ثم خرجت لتسير من منزلها حتى كوبري قصر النيل، وجدته هادئًا يخلو من صخب النهار وضجيج البشر، تحنو عليه نسمات هواء الشروق وقطرات الندى، التفتت حولها وكأنها تبحث عن شيء فقدته، حتى تجد أحمد واقفًا في مواجهة النيل متأملا لحظات التقاء أشعة الشمس بمياهه العذبة.

اقتربت منه في هدوء وتحسست ظهره بأناملها، فنظر إليها نظرات حانية مثيرة، تبعتها ابتسامة هادية مريحة وكأنها بلسم يدوى جراحه التي يشكوها إلى المياه.

قالت له بصوت خافت: "أتسمح لي أن أتجول جوار النيل برفقتك؟".

أطال أحمد التأمل في بحرعينيها الواسع، ثم رد عليها: "وهل يرفض النعمة سوى مختل؟!".

سارت حياة جواره على كورنيش النيل وهي تتعمد أن تقترب من جسده بين فترة وأخرى ليشعرها بالأمان، شعرت أنها بحاجة إلى أن ترتمي بين ذراعيه وتقص عليه كل ما يجول بخاطرها، ولكنها لم تستطع فعل ذلك، وتجاهلت رغباتها لأول مرة، وحاولت التعمق في معرفته، فسألته: "أود أن أتعرف عليك أكثر، أشعر أنني بحاجة إلى ذلك".

أحمد: "ليس لي قصة فأنا كما ترين بلا مغزى وبلا عنوان، أنا لا شيء، مجرد جزء من عالم دنيوي حقير، عليّ أن أحياه رغمًا عني".

ارتجف فؤادها وهي تستمع إلى تلك الكلمات، وقالت: "لماذا كل هذا اليأس من الحياة؟".

أحمد: "وهل لمثلي أن يكون له هدف وهو الشريد الوحيد، فأنا نكرة في عالم غوغائي أحياه رغمًا عني، أرى كل يوم أطفالًا مشردة تجوب الشوارع والطرقات بحثًا عن فتات طعام، كتب عليهم أن يعيشوا بلا هوية ناقمين على آبائهم لأنهم أنجبوهم، يتمنون الموت في كل لحظة قبل أن يسمعوا من أناس مثلهم ما يقتلهم وهم أحياء".

أتقن النظر إلى عينيها وركع على ركبتيه، وقال بصوت حماسي: "سيدتي الجميلة، انزلي من برجك العالي إلينا نحن الطبقة الكادحة التي تكد وتتعب، ليس من حقنا الحلم أو التمنى ولا حتى المطالبة بعدالة كونية، أو النظر إلى من هو أعلى منا حتى لا نقع في قفص الاتهام، علينا أن نسير صمًا بكمًا عميًا حتى لا نزعج أهل القمة، وفي النهاية نموت في صمت لا تقام لنا جنائز حارة ولا يعزى فينا أحد، فنحن ضحايا مجتمع يأكل فيه الكبير الصغير ويقدم الصغير نفسه قربانًا للكبير.

ثم اصعدي مرة أخرى و انظري إلينا سترينا حثالة مجتمع لا فائدة منا، وخير ما تفعلوه إبادتنا، لتنعموا في حياة هادئة، نحن سيدتي لسنا سوى أوباشًا نعيش عالةً عليكم، موتنا رحمة لكم قبل أن تكون لنا، فلماذا تزعجي مسامعك بتلك الكلمات التي لا طائل منها؟!".

اهتز كيان حياة من هول تلك الكلمات، ترقرقت دمعة في عينيها ولكنها أبت النزول، سرعان ما ردت عليه بصوت مرتجف: "قص علي حكايتك، أريد أن أسمعك".

أحمد: "أنا لا أعرف شيئًا عن نسبي، ليس لي عائلة أو حتى أسرة".

قاطعته حياة: "أليست تلك السيدة التي قابلتها أمس أمك؟".

أحمد: "نعم، إنها لدي أكثر من أمي، فهي التي ربتني وأسمتني، هي صاحبة الفضل عليّ".

أخذ نفسًا عميقا، واستطرد: "تلك السيدة التقطتني وأنا صغير ملفوف في قطعة قماش على باب مقبرة جوار تلك التي كانت تعيش فيها وسط الأموات، أخذتني أعيش معها، بعد أن طردها ابنها الوحيد، من شقتها التي منحتها له ليتزوج فيها.

رأت بي عوضًا عن ابنها العاق الجاحد، علمتني القراءة والكتابة، وعلمتني معنى البر، أمدتني بالصبر على الحياة، علمتني أن الدنيا فانية، وأن الموت راحة، كنت أعيش بينهم مطمئن لأنه لا أحد منهم سيؤذيني.

ولكن لم تطل تلك العيشة طويلًا، فقد غضبت علينا الحياة مرة أخرى واستكثرت علينا العيش وسط الأموات، فطردونا من تلك المقبرة، وعدنا إلى شوارع الأحياء، كدت أن أيأس وانتابنى التشاؤم إلا أن أمي كانت دائما تدلني على طريق السعادة وراحة البال بالرضا على ما قسمه الله لنا، وتقول لي دوما: عسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم.

عملت في الكثير من الحرف منذ صغري، وكنت أنظر إلى الطلاب الذاهبين إلى مدارسهم وأتمنى أن أكون معهم، كنت أطلب أحيانا من بعضهم أن يمدونني بالكتب لأنهل من بحر العلم الواسع.

تنقلنا من مكان إلى آخر، مرة تطردنا الطبيعة ومرة يطردنا البشر حتى استقر بنا الأمر هنا أعيش على بيع الورد، وما يجنيه لنا من أموال لا تسمن ولا تغني من جوع.

حتى البنت الوحيدة التي أحببتها عندما كانت أمي تعمل في عقار في المعادي، وتربينا سويًا، تركتني للتزوج من رجل غني، وطردنا صاحب العمارة بسببها، لقد كانت تشبهك بعض الشيء...".

سرعان ما قاطعته حياة: "حتما لست أنا.. أنا أعيش بالزمالك".

أحمد: "بالطبع، أنت أحلى كثيرًا، ولكن ربما تلك الرعشة التي تنتاب قلبي عندما أراك هي من أشعرتني بذلك".

***

شمس: عذرا أبتي.. هل هي فعلا الفتاة التي أحبها؟

صلاح: نعم، لأنها عندما فقدت الذاكرة لم تفقد مشاعرها، ولكنها كانت لا تريد العودة إلى الماضي أيًا كانت العو اقب.

شمس: استكمل أبتي

****

تحركت مشاعر حياة تجاهه بعدما سمعت قصته التي رأتها مأساوية، تمنت لو احتضنته ولكنها خشيت أن يظن أنها تشفق عليه ليس أكثر، فامتنعت عن ذلك، فهي كانت تعلم كم هو حسّاس مرهف.

نظرت له بشغف وإعجاب، وقالت: "الآن أراك أفضل، وأتمنى أن تمنحني شرف أن أرسمك في لوحاتي، دعنا نختار المكان المناسب قبل ضجيج البشر".

بدأت حياة في رسمه على ضفاف النيل تحت أشعة الشمس التي أصبحت لا تحرقه.

عادت حياة إلى البيت والسعادة تغمر صدرها، وتملأه بهجة وأملًا وتزداد نشاطًا، فتكرس كل طاقاتها لرسم المزيد من اللوحات المبدعة، لم يشرد

ذهنها بعيدًا عن التفكير في تلك الحالة المنعشة، ونظرة أحمد المريحة، وبسمته الهادئة، التي تدفعها إلى المزيد من العمل والتفنن في الإبداع.

جميل هو شعور الحب الذي يأسرك روحًا وجسدًا وفكرًا، ويدفعك لأن تقدم أفضل ما لديك، ويغمرك سعادة وقدرة على العطاء، ترغب في أن تملك كل كنوز الأرض حتى تعيد توزيعها وتسعد كل البشر، تكرس كل طاقتها لترسم لوحات تعطي الأمل وتبعث البهجة، لا حاجة لأن تنقل آلام وأوجاع يشعر بها البشر كل يوم في حياتهم.

تنهمك حياة في الرسم، لأسابيع، وصورة أحمد مرسومة في مخيلتها، تحمسها على المزيد والمزيد، تتبسم لها لتمنحها الأمل، وتلمع عينيه السوداء البارقة لتجتذبها نحو الطبيعة، تشعر بسكينة لمجرد تذكره، تنهي اللوحة التي بدأتها مؤخرًا، ثم تستريح قليلًا على السرير، وهي لا تزال تذكر أحمد بصورته ونبرات صوته.

أعادها إلى واقعها صوت رنين هاتفها.. إنه أيمن، ردت عليه، قائلة: "مساء الخير".

أيمن: "مساء الورد على أرق وأحلى عيون في الشرق الأوسط".

حياة: "دائما تتحدث في الوقت المناسب.. انتهيت من الرسم حالًا".

أيمن: "جميل.. إذن سنتقابل قريبا".

حياة: "لن أقابلك قبل أن تحدد موعدًا للمعرض.. أنا جاهزة".

يضحك أيمن

حياة: "لماذا تضحك؟".

أيمن: "لأنني كنت أحادثك لهذا السبب، ما رأيك في الخميس المقبل؟".

تصرخ حياة من المفاجأة: "حقًا؟ حددت موعدًا؟".

أيمن: "نعم سيدتي، في الأوبرا كما أردتِ، وسيحضر وزير الثقافة وكبار فناني مصر، كل طلباتك أوامر".

حياة: "لا أعرف كيف أشكرك، ولكن لم يتبق سوى يومين، عليّ أن أستعد جيدًا، وسنحتفل بعد المعرض".

أيمن: "بالطبع حبيبتي، حقًا لقد اشتقت إليك".

حياة: "و أنا أيضا".

أيمن: "مساءك كما الورد حبيبتي".

حياة: "و أنت أيضًا حبيبي".

أغلقت حياة الهاتف والسعادة تغمرها، والابتسامة تملأ وجهها، فكم كان كرم الله كبيرًا عليها، نظرت إلى اللوحات فرأت "أحمد" تأملت قليلا به ثم قالت: "أشعر أنك وجه الخير عليّ"، ثم تأملت في لوحاتها الموزعة بشكل متدرج على الحائط، وقالت: "أخيرا سيتحقق الحلم، إنها حقًا لوحات جذابة لأنها خلقت من مشاعر حقيقية، أعتقد أنها تعبر عن أحاسيسي المموجة".

استفاقت على دقات أمير على باب حجرتها، فتسمح له بالدخول.

أمير: "مساء الورد يا حبيبتي".

حياة: "مرحبا.. حبيبي.. كنت أنتظر قدومك لتشاركني سعادتي".

أمير: "أسعديني معك حبيبتي.. ما الأمر؟".

حياة: "معرضي يوم الخميس المقبل في معرض الفنون بالأوبرا".

يقبل عليها ويقبل رأسها: "مبارك عليك حبيبتي.. سأحضر واسمحي لي أن أدعو عددًا من أصدقائي رجال الأعمال".

حياة: "أتمنى ذلك.. أهلا بكل مدعويك".

أمير: "هيا نتناول العشاء".

حياة: "أشكرك عزيزي، ولكني أنا بحاجة إلى النوم والراحة حتى أستعد للمعرض جيدًا".

أمير: "تصبحين على راحة وسعادة".

حياة مبتسمة: "و أنت أيضا".

مددت حياة جسدها على السرير، ونظرت إلى النقوشات على السقف كعادتها، فلقد هان الوقت، أقل من يومين ويتحقق الحلم، وتبدأ حياة جديدة مليئة بالأمل والنجاح، وهي حتى اللحظة لم تحدد موقفها تجاه أمير و أيمن وآسر.. تذكرت أنها بحاجة إلى الأخير لجلب الصحفيين.

هاتفت آسر: "مساء الخير".

آسر: "اشتقت إليك كثيرًا، متى سأراكِ؟".

ضحكت حياة: "علمونا قديمًا أن نرد التحية أولًا".

آسر: "اشتياقي تغلب على تربيتي، أروي ظمأي أولًا، فهل يعاقب الأسير على ضعفه".

حياة: "هناك أمر هام أولًا أريده منك".

آسر: "أؤمريني مولاتي".

حياة: "معرضي بعد غد وأرجو دعوة الصحفيين إن استطعت، وبالطبع أنت لست محتاج إلى دعوة".

آسر: "سمعًا وطاعة سيدتي، سأصورك بنفسي وأصور جميع لوحاتك، لا تقلقي، وبالنسبة للتغطية الصحفية لا تعبأي بها، سيكون كل شيء على ما يرام".

حياة: "أشكرك عزيزي".

أغلقت الهاتف ولم تفكر سوى في المعرض وأحمد هذا الذي اقتحم حياتها فجأة دون أن تدري، واختطف كيانها، وجعلها تشعر أن لها روح

وليست مجرد جسد، آثار ذلك داخلها صراع بين الرجال الأربع، فلقد حان الوقت لأن تختار.

استغرقت وقتًا في التفكير في هذا الصراع حتى حدثتني لتطلب مقابلتي، وبالفعل قصت عليّ كل ما حدث، ونقلت لي كل ما تشعر به، ودعتني لحضور المعرض، شعرت وقتها أن الصراع أصبح على أشده داخلها، وأنها تحتاج للمساعدة.

بمجرد عودتها إلى المنزل، عادت لأفكارها حتى اختطفها النوم، لتستقيظ باكرًا فصبّحت على الشمس ثم مارست طقوسها اليومية، ثم اتجهت إلى الأوبرا لتعرف كيف تستعد للمعرض.

استعدت حياة للذهاب إلى متحف الفنون وهاتفت أيمن ليقابلها هناك، ويساعدها في التجهيزات.

خرجت من المنزل واستقلت تاكسي للذهاب إلى الأوبرا، دقائق بسيطة من ركوبها وهاتفها أمير: "حبيبتي.. كيف أنت اليوم؟".

حياة: "بخير عزيزي، في طريقي إلى الأوبرا".

أمير: "هل استقليت سيارتك؟".

حياة: "لا استقليت تاكسي، أعتقد أنني لم أحفظ الشوارع بعد".

أمير: "حسنًا، سأرسل لك سائق بسيارة للأوبرا".

حياة: "حسنًا، أشكرك حبيبي".

أمير: "أنت ملاكي، وأريد أن يعلم الجميع أنك ملكة".

تبسمت حياة ثم أنها المكالمة.

وصل حياة إلى المتحف، لتجد أيمن يقف وسط حلقة من المعجبين والمعجبات، نظرت إليه وكأنها تستنكر انشغاله عنها، ليست غيرة عليه ولكن رغبة في إنجاز مهامها.

بمجرد أن وقعت عينيه عليها انسحب من الحلقة وذهب إليها، وانحني أمامها وقال بصوت خافض: "عذرًا مولاتي، أنتِ اليوم الملكة المتوجة، وغدًا ستسحبين من عرشي المعجبين والمعجبات".

رضت تلك الكلمات غرورها، وشكرته بابتسامة.

آثار هذا التصرف انتباه الحضور في المكان.. "من تلك التي يعاملها هكذا؟".

جذبها أيمن تجاه معجبيه وخاطبهم: "تلك خليفتي في الفن.. حياة أمير.. وهي أميرة الفن حقًا".

شعرت حياة بأنه يأخذها من يديها إلى طريق المجد والشهرة، انتابها شعور بالفرح والتألق بعد أن أهداها معجبيه.

حاولت حياة أن ترد له جزء من هذا الجميل، فقالت: "أشكرك أستاذي.. ما أنا سوى إحدى تلميذاتك".

تناوب الحضور البسمات، وازدادت بهجة حياة فوجود مثل هذا الفنان التشكيلي العالمي يدعمها بشدة ويقوي موقفها لدى الجمهور.

خاطبها أيمن: "هل أتيتِ باللوحات".

حياة: "لا".

أيمن: "ما منعك عن هذا؟ ليس لدينا وقت، عليكِ إحضار اللوحات حالًا أو اطلبي من أحد أفراد عائلتك إحضارها".

حياة: "حسن...".

قاطعها صوت رنين الهاتف.. رقم غير معروف.. اندهشت من قد يكون هذا.

قال لها أيمن بسخرية: "عله أحد المعجبين".

ابتسمت حياة وردت.. إنه السائق أخبرها أنه قد وصل إلى الأوبرا.

استأذنت حياة من أيمن لأن تذهب لإحضار اللوحات، ومضت إلى حيث تقف السيارة، ركبت وطلبت من السائق أن يوصلها أولًا إلى كوبري قصر النيل، وفور وصولها إلى مطلعه، دعته يركن السيارة وتترجل أعلى الكوبري حتى ترى أحمد.

بمجرد أن رأته لمعت عيناها وازدات بريقًا، وازداد وجهها نضارة وإحمرار، هو الرجل الوحيد الذي يجعلها تتلعثم ولا تستطيع التحلق في عينيه طويلًا، سرعان ما أرسلت نظراتها إلى أسفل هاربة منه.

اقترب أحمد منها: "لقد أنرتي الكوبري سيدتي".

حياة: "هو نورك أنت".

قالت في ذهنها: "وأنت أنرت حياتي كلها"، ولكن الكلمات هربت منها والحروف أبت أن تنطق، فاكتفت ببسمة، وخاطبته بصوت خافت: "هل لي أن أطلب منك شيئًا".

أحمد: "لو كان الأمر بيدي لأفعل فورًا".

حياة: "أريد خدمة، أنا معرضي غدًا في الأوبرا وبالطبع أنت ستحضر لأنك ملهمي".

أخذت نفس عميق واستطردت: "أريد أن تكون أول من ترى اللوحات، هلا تأتي معي وتساعدني في نقلها؟ لم أثق في غيرك".

أحمد: "بالطبع، ولكن أعطني لحظات لأخبر أمي".

حياة: "سآتي معك".

ذهبا يسلمان على والدته، وأخبرها أحمد أنه سيذهب معها في أمر عاجل، ولن يتأخر.

اصطحبت حياة، أحمد إلى السيارة وركبا سويا، وهي تحاول البحث عن كلامات ومبرر تقوله لأمير عن سبب إحضارها لهذا الشاب، ولكنها قررت أن

تقول له أنها استعانت به لحمل ونقل اللوحات، بينما لم يطرق إلى ذهنها أن تفكر فيما ستخبر أحمد به إذا رأى أمير، هي لا تتكلف أمامه وليست بحاجة إلى بذل جهد في الكذب عليه.. إنه الحب الذي يجعلنا نلغي ترتيباتنا ونكتفي بتلقائيتنا، فلا نخجل من أنفسنا، ولسنا بحاجة لأن نصطنع شخصية أخرى.

انتاب أحمد الإحساس المرير بكبر الفجوة بينهما، هي من طبقة غنية تستقل سيارة فخمة بسائق خاص، وهو مجرد بائع ورد بلا مسكن.. "حقًا، لست سوى صعلوك مغفل إن اعتقدت أنها تحبني".. هكذا حدّث نفسه.

اكتفى كل منها بنظرات خاطفة إلى الآخر وذهنهما مشغول كل في حاله.

بمجرد وصولهم وقعت عينا أحمد على منظر الفيلا والمنطقة المجاورة على النيل في الزمالك، حدث نفسه: "صعلوك".

وبالفعل نقل معها اللوحات وهو يتأملها، كم هي فنانة جميلة مرهفة الحس، ولكن فرق شاسع بينهما في الطبقات.

رأى طريقة تعاملها مع السائق والخادمات، فوجدها إنسانة بسيطة تستحق الإعجاب.

شعرت حياة وهم في طريقهم إلى العودة بما يدور في ذهنه، وأرادت أن تخبره بكل شيء ولكن عليها أن تتمهل حتى يبتعدا عن السائق.

وفور وصولهم سلمت اللوحات لأيمن، وحاول أحمد المضي، إلا أنها نادته قائلة: "عليّ أن أوصلك لنفس المكان الذي اختطفتك منه".

ابتسم أحمد، وقال: "لست بحاجة سيدتي".

حياة: "أريد أن أحادثك قليلًا إن لم يكن ذلك عبئًا عليك".

أحمد: "عبء! كيف هذا؟ أنا لي الشرف أن تحادثيني سيدتي".

نظرت حياة إلى عينيه بعمق وأمسكت ذراعيه: "دون أي مقدمات، دعنا من كل تلك المعوقات الكلامية، أنا لست سيدتك أنت سيدي".

أسرع أحمد بالرد: "عفوًا.. القامات محفو...".

قاطعته حياة والدمعة تلمع بعينيها: "كف عن هذا.. فأنا.. أنا أحبك، ولن أسمح لأي شيء مهما كان أن ينتزعك مني".

تسمر أحمد في مكانه كأنه تلقى صفعة على وجهه وهو نائم.

استكملت حياة: "ألا تبادلني شعوري، كن صريحًا معي".

تلمع عينا أحمد وهو يقول: "بلى، ولكن...".

حياة: "دون لكن، أنت ملهمي وحبيبي ولا حبيب غيرك، سأنتظرك غدًا في معرضنا".

تعمق أحمد في النظر إلى عيني حياة، وكأنه يحاول أن يرى صورته في ضي عينيها، وكيف هي تراه هكذا، ربما لا يتخيل لحظة أن تحبه، وأن تبادر بمصارحته بشعورها هذا، وبرغم ذلك الإحساس النبيل إلا أن القلق تزايد داخله، فأصبح يخشى من الفرحة التي تهددها الواقع بالزوال.

فيما، بدت حياة أكثر إشراقًا وبهجة، وازداد شعاع الأمل في عينيها، إلا أن داخلها خوف، وإحساس مؤرّق بأنها تخادعه، فهو حتما يظن أنها من عائلة ثرية، وهو لا يليق بها، في حين أنها ترى أنه أشرف وأنقى من تلك النفس القابعة داخلها، ترغب في أن تبوح له بكل ما تحمله من أسرار، وما ترتكبه من خطايا، ولكن تقمعها تلك النفس الأخرى.

أخبرت نفسها بأنه حتما سيأتي الوقت المناسب الذي تستطيع فيه بكل قوة أن تعترف له، وتتطهر نفسها من هذا الذنب، الذي يجعل الإنسان الوحيد الذي أحبته يشعر بأنه أدنى منها، ولكن تذكرت أن عليها أن ترحل حتى تتأهب للمعرض في الغد، تودعه وتمضي إلى المنزل.

بمجرد وصولها إلى المنزل دخلت غرفتها، ولم تستسلم للتفكير كعادتها وإنما خضعت إلى النوم العميق، لترتاح بعد هذا اليوم الشاق، واستعدادًا لليوم الحافل.

(١٠)

خرجت حياة من المنزل قبيل غروب الشمس، اجتذبها منظر تجمهر السحب الذي يعبر عن شعور ما يعتريها، فربما مس إحساسها بالضجر والقلق، هل هو لأنها أوشكت على تحقيق حلمها؟ أم أنه يعكس الصراع الدائر داخلها حول الأربع رجال؟ أم أن شغفها الغريب بأحمد جعلها تقع في توتر غير مبرر؟

أسئلة كثيرة جالت في ذهنها ولكنها لم تجد إجابات لها، لم تعرف أهي تقترب من الحلم أم النهاية؟ غريب أننا نخاف من السعادة ونرتاب من النجاح، يبدو أنها طبيعة بشرية فلا نحن نطيق الحزن، ولا نتحمل الفرح، ربما لأنهما مرتبطين دائما ببعضهما أو يتبعان بعضها، وربما نخشى البدايات لأنها نهاية ما قبلها، فتجعلنا نحزن، أو لأنها تولد نهايات نخشاها.

سرعان ما تحولت نظرات عينها إلى استهجان عندما وقعت على ملابسها التي ترتديها، وآثارت دهشتها، لماذا فضلت في هذا اليوم خاصة أن تسترها تلك الملابس الوحيدة التي عاصرتها في حياتها الأولى، قد تكون شاءت أن تشعر بالألفة وأن تجد من ير افقها ويعرف حقيقتها كاملة، وربما لأن تلك الملابس تشعرها بقدر من الأمان والطمانينة.

قطع مناجاتها مع نفسها ضجيج سيارة قادمة، إنه أمير جاء ليذهب معها في أول معرض لها، هذا أمر مبهج ولكنها لم تشعر بأي بهجة وإنما شعرت بأن خوفها قد تفاقم، وبدأت تبذل جهدًا كبيرًا في التغلب على دموعها.

تصنعت حياة الابتسامة، وهي تهمس لنفسها: "ياله من يوم كئيب عليّ أن أتقن مراوضته"، استقلت سيارة أمير وهو يقودها ويتغزل بها، بينما هي شاردة في مياه النيل والسماء حانقة عليها لما تعكسه داخلها من شجن وتوتر.

نظرت إلى خطوط الشمس الحمراء الدامية وقت غروبها وكأنها تشعر أنها ستواجه هذا المصير قريبًا، شعور لم يفارقها، ربما لأن تلك المرة الأولى التي يتجمع فيه الغرماء الأربع، لا تعلم ولكن كل ما تعلمه أنها كانت تشعر بحبل يلتف حول عنقها ليخنقها، وضغط جارف يقودها إلى الانفجار، الصراعات داخلها تتزايد، اقترب الوقت لتحديد المصير وحسم المستقبل، لا شيء يدعوها للتفاؤل سوى تلك العين البارقة التي تقع في وجه أحمد الأسمر الجذاب.

شرود حياة منعها من الانتباه إلى أمير وهو يحدثها عن مفاجأة يحضرها لها، لم يهمها كل هذا أو لم تسمعه، ولكنها انتبهت عندما كرر مناداته لها، وشعرت أنه ربما حدثها كثيرًا، فتداركت الموقف: "عفوًا حبيبي.. القلق اختطفني منك".

بهدوء رد أمير: "حقك حبيبتي ولكن لا تقلقي أبدًا، أنت بخير وأنا لن أتركك".

ابتسمت حياة وقالت: "لا أعرف كيف أشكرك".

أمير: "لا تشكريني، ولكن انظري هذا المكان سيشهد حدثًا تاريخيًا بميلاد أعظم فنانة".

انتبهت حياة حولها وتقول: "حقا، لقد وصلنا؟".

أمير: "حمدًا لله على سلامتك سيدتي".

نزلت حياة من السيارة، ولكنها شعرت أن هناك شيء ينقصها، لم تريد أن تدخل قبل أن تلقى أحمد، نظرت إلى الساعة في هاتفها.. "ما زال لدي وقت".

استأذنت أمير بالذهاب لتستقبل أحد الضيوف بالخارج، ومضت مسرعة تجاه كوبري قصر النيل، وكأنها تبحث عن ابنها التائه لتعود لها ابتسامتها ويزداد بريق عينيها بمجرد رؤية أحمد.

أطالت حياة النظر في عينيه، وكأنها تود أن ترتمى بين أحضانه، وأن تبحر في أمواج عينيه، لم تنطق ببنت شفاة، ولكن عينيها ممتلئة بالكلام، فقالت في نفسها: "كل شيء ستكون على علم به، ولكن عندما نهدأ إلى أنفسنا، لا بد أن يمر اليوم بسلام".

لم تستطع حياة أن تملك لسانها وتمنعه من أن يعبر عما بداخلها، فقالت: "هل تسمح لي أن أعرب عن امتناني لك، وأخبرك أنك جنة الله إليّ في تلك الأرض".

خجل أحمد واحمّر وجهه كبكر ليلة دخلتها، ولكنه سرعان ما تمالك نفسه ونظر إلى عينيها وهمس لها في أذنها: "وأنا اكتفيت بكِ جنة في الأرض والسماء".

ابتسمت حياة واحمر وجهها كأنها أول مرة تسمع كلمة ملاطفة، أو ربما لأن تلك الكلمات مست وجدانها وروحها وجسدها معًا، فقد أكد لها شعورها، وعلمت أنه يبادلها نفس الشعور.

مسكت حياة يده وتحسست أنامله، وقالت: "هيا بنا، أريد أن تكون معي وأنا أفتتح أول معرض لي، أنا أتفاءل بك، ولن أدخل سوى برفقتك".

مشاعرهما الملتهبة منعته من التفكير في أي شيء سوى فيها، فذهب كأسير لا يعرف شيئًا عن مصيره سوى أنه فرح بهذا الأسر.

بمجرد دخولهما المعرض، بدأ أحمد في استرداد وعيه خاصة مع كثرة النظرات المصوبة تجاهه، نظر إلى ملابسه الممزقة البالية، ثم أعاد النظر إلى ملابس الحضور وهندامتهم، شعور بازدراء يعتريه، ولكن عليه أن يصمد فهي اختارته هو، وقف يتأمل لوحاتها، ويتتبع خطاها.

اتجهت حياة إلى الحضور فوجدت آسر متواجدًا، والتقط لها صورا بصحبة عدد من الصحفيين والمصورين، فابتسمت له وسلمت عليه، ليهمس لها: "اشتقت إليكِ كثيرًا، ملكتي الجميلة".

همست له: "انتظر قليلًا لبعد المعرض، عليّ أن أركز في استقبال ضيوفي الآن".

يومئ برأسه بالموافقة.

وفجأة، وجدت يد أيمن تجتذبها إليه، فنظرت له باستفهام، فأشار إلى موكب الوزير الفاخر، فلمعت عينيها، وشعرت أنها بالفعل اقتحمت سلم المجد، نظرت بامتنان إلى أيمن، ثم اندفعت نحو باب المتحف لتستقبل الوزير.

بادرها الوزير بالملاطفة، فهو كأي رجل قابلها التفت إلى جمالها، وجاذبية عينيها، شعرت بإعجابه بها، ولكنها كتمت ذلك، فهي لم تكن بحاجة إلى صراع خامس داخلها، اكتفت بالرد عليه ببسمة إعجاب، واصطحبته في جولته بين لوحاتها، و أبدى سعادته بمعرفتها، ثم أدلى بتصريحاته للصحفيين ليعلن مولد فنانة جديدة.

لم تعرف حياة أهي حقًا تستحق المديح كفنانة ورسامة أم أنه يجاملها لأنه معجب بها كأنثى، آثارت داخل أي رجل غريزة البقاء، وحب إثبات الذات الذكورية، ولكنها لم تقف عند ذلك كثيرًا، فسرعان ما رحل الوزير، وسلم عليها سلامًا حارًا يؤكد لها ما بداخلها من تكهنات.

بمجرد خروج الوزير، استوقفها أحد رجاله، طالبًا منها رقم هاتفها وأخبرها أن ذلك بناءً على طلبه، وبالفعل أعطته الرقم، ثم أسرع ليلحق بسيده.

لم تستكمل حياة تنهيدتها حتى لمحتني داخل المعرض، و اندفعت نحوي، وأخبرتني بأنني الوحيد الذي تشعر بالأمان تجاهه، ربما لأنني كنت أنظر إليها كإنسانة وليس كأنثى، شكرتها على دعوتي لرؤية هذا الفن البديع.

ولكنها تجاهلت كلماتي، وأخبرتني أنها بحاجة إلى الحديث معي، لأنها في في حالة يرثى لها، و أنا كنت أشعر بكل ما يدور داخلها، ولكن كنت أتركها تتحدث، لتريح ذاتها، وبعد حوار ليس بطويل، قاطعها أحد الضيوف، فطلبت منها الاعتناء بزوارها واستكمال الحديث لاحقًا.

ذهبت حياة لتتناقش مع ضيوفها، ثم تذكرت أحمد فذهبت تبحث عنه لتجده يقف أمام لوحة تحمل بين طياتها الشجن، قطعت تفكيره هامسة في أذنه: "كل تلك اللوحات من وحيك أنت".

ابتسم أحمد: "أشعر أنني في حلم أخشى الاستيقاظ منه".

حياة: "ليس حلمًا، أنا حقًا ممتنة لك كثيرًا".

قطع حديثهما أيمن الذي ناداها ليخبرها أن أغلب لوحاتها طلبت للشراء، قائلًا: "مبارك عليك نجاح أول معرض".

ارتسمت البهجة على وجهها: "لا أعرف كيف أشكرك".

أيمن: "أنت تعلمين كيف تشكريني، لقد اشتقت إليك".

اضجرت حياة من تلك الكلمات ولكنها لم تبدي ذلك فعليها أن تنتظر نهاية المعرض، وقالت: "دعنا ننتظر حتى ينتهي اليوم".

أيمن: "سأنتظر على أحر من الجمر".

عادت حياة إلى ضيوفها، لترحب بهم، إلا أن يدًا تجتذبها، تنظر.. إنه أمير يطلب منها الذهاب معه ليعرفها على رجال الأعمال من أصدقائه، الذين يبدون إعجابهم بالمعرض، ويعربون عن سعادتهم لرؤيتها.

لقد سئمَت حياة من اصطناع البسمات ورسم السعادة المفتعلة على وجهها، ولكن كان عليها أن تخبئ تلك المشاعر ليمضي اليوم.

لم تطل الحديث مع أصدقاء أمير وسرعان ما عادت إليّ، وسألتي: "هل أعجبتك لوحاتي؟".

أجبتها: "جدًا".

فسألتني: "ماذا ترى بها؟".

ابتسمت وقلت لها: "أرى تفاوت في الحالة النفسية ما بين حب الحياة والبهجة وصراعات غريبة وشعور بالشجن".

شعرت أنني مسست شيئًا قابعًا داخلها، فسألتني: "والآن، كيف تراني؟".

نظرت إليها ثم أجبتها: "قليل من البهجة وكثير من الصراعات والحيرة والتيه، الآن عليك حسم حياتك، ماذا تريدين؟ وأي طريق ستختاريه؟ عليك التريث والتمهل قبل اتخاذ القرارات، اعدلي الميزان بين كفتي قلبك وعقلك".

تجهمت حياة وقالت: "و أنا أحتاج مساعدتك".

قلت لها: "منذ أن رأيتك واخترت لك اسم حياة و أنا اعلم أنك ستصلين إلى صراع يحتدم داخلك، ليجبرك على تحديد هويتك واختيار طريقك".

سألتني: "كيف عرفت ذلك؟".

قلت لها: "تعاملت معك كنفس بشرية جديدة العهد بالحياة تحبها وتود أن تخوض كل تجاربها وتستمتع بكل لذاتها، إلا أنها سرعان ما تصطدم

بالو اقع، وتجد أنها لن تستطيع أن تلبي كل احتياجاتها وترضي كل اللذات، سيأتي وقت يكون لزامًا عليها التضحية بشيء ما، وهكذا أنت الآن كما أظن".

قالت لي: "طالما أنت تعرف كل ذلك، لماذا لم تحذرني؟".

قلت لها: "لكل مقام مقال، إذا قلتها وقتها لما كنت صدقتيني أو وثقتي بي، لدي شعور يقيني بأنك تعرضتي لصدمة قاسية جدًا جعلتك تصرين على إنهاء حياتك الأولى نهائيًا، دون التفكير فيها ثانية، وبدء حياة جديدة؛ لذا اخترت لك هذا الاسم".

قالت لي: "ولكن ماذا قد تكون تلك الصدمة؟".

قلت لها: "أنتِ الوحيدة القادرة على معرفة تلك الصدمة وغالبا آثارها تنعكس على حياتك وتصرفاتك، هناك أشياء تذكرك، حتى لو بدون وعي، فتجدي نفسك تنتقم من شخص ما، أو ترفض سلوكًا ما دون سبب، أو تصدر ردود فعل عنيفة على مو اقف لا تستدعي ذلك، كل ذلك يظهره تصرفاتك وصراعاتك، إن أردت استرجاع ذاكرتك، حتمًا سأساعدك".

بارتباك، قالت: "ولكني لا أريد معرفة شيئًا عن حياة انتهت، الأولى أن تساعدني في حياتي الآنية".

قلت لها: "كما تريدين، قصي علي ما تشائين، فليكن اوصفي لي شعورك الآن".

قالت: "لا أعرف لماذا أشعر بشجن في هذا اليوم الذي أحقق فيه حلمي، شعور غريب جدًا".

قلت لها: "لعل لأن هذا اليوم فاصل في حياتك، وعليك تحديد مصيرك في أمر ما".

قالت: "بالفعل، أنا مطالبة بحسم أمري اليوم، لقد أجلت الكثير من القرارات لبعد المعرض".

سألتها: "هل يمكن أن تخبريني بها؟".

أجابت: "لقد عرض عليّ أمير الزواج".

قلت: " حسنًا.. هذا خبر سار".

سرعان ما ردت: "لا".

سألتها: "لماذا؟".

أجابت: "لأنني أحب".

قلت لها: "ما المشكلة؟! فلتتزوجي من تحبين".

قالت: "للأسف هو لا يعلم عني أي شيء كما أنه فقير جدًا، و أنا اعتدت على حياة بذخ كل طلباتي مجابة".

قلت لها: "إذن، أنت الآن في صراع بين رغباتك وعاطفتك".

قالت: "ليس هذا فحسب، لقد اعتدت على أشياء أخرى مع أشخاص آخرين وإن تزوجت لن أستطيع الخيانة".

سألتها: "مثل ماذا؟".

قالت في خجل: "ارتبطت جسديًا بشخص، واضطررت إلى ملاقاة آخر من أجل أن أنجح وأصل إلى هذا المعرض".

سألتها: "هل تشعرين أن رجل واحد لا يكفي؟".

حياة مسرعة: "فعلًا".

تداركت تلك السرعة، واستطردت: "أحيانا لا يستطيع الرجل إشباع كل رغبات المرأة ومع ذلك هو يرغب في كل شيء".

عرفت وقتها أن تلك هي الأزمة التي جعلتها تفقد حياتها الأولى، فغالبًا هي تعرضت لخيانة زوجية برغم أنها ضحت وتنازلت عن الكثير.

انتبهت حياة إلى نظرات أحمد المترقبة إليها فاستأذنت لتذهب إليه.

اقتربت منه قائلة: "كلها أمور روتينة ليس أكثر، لكن تأكد أنك بهم جميعا، لا تخادعك تلك المظاهر البر اقة".

ينظر إليها أحمد مندهشًا، وكأنه لم يكن يظن أنها تشعر بما يدور داخله.

استطردت حياة: "أنت في نظري أفضل من كل هؤلاء، لدي الكثير الذي أود إخبارك به ولكن لم يحن الوقت".

ابتسم أحمد وكانها أزاحت عن صدره حجرًا ثقيلًا.

لم يطل حديثهما بعد أن قطعه تو افد الضيوف عليها للحديث معها عن اللوحات، وتهنئتها بنجاح المعرض.

عادت إليّ، فسالتها: "أهذا حبيبك؟".

أجابت: "نعم".

قلت لها: "حسنًا.. رائع أن يجد الإنسان من يحب، خاصة إن كان شعورًا متبادلًا".

ردت مسرعة: "بالعكس، هذا الموضوع يؤرقني".

سألتها: "لماذا؟".

أجابت: "لن أستطيع العيش في حياته، فهو فقير جدًا، وأنا اعتدت الرفاهية".

قلت لها: "ولكنك الآن في أول طريق النجاح تستطيعين أن تحيين حياة أفضل دون حاجة إلى أحد".

قالت: "حتى النجاح سيكون صعبًا إن لم أعتمد على سلم يصعد بي إليه".

قلت لها: "ولكنه بالفعل تحقق، عليك أن تحسمي حياتك مفردك، ماذا تريدين؟".

قالت: "أريد كل شيء، المتعة والرفاهية والنجاح والحب".

قلت لها: "ونفسك؟".

قالت: "هكذا أجد نفسي، لا يمكن التخلي عن مكتسب اكتسبته".

قلت لها: "أظن أنك بحاجة إلى برهة من الوقت لتفكري جيدًا".

قالت: "ربما، ولكن ليس الآن".

قلت لها: "هناك شيء ما تغير داخلك منذ لحظات، لا أعلم ما هو ولكن ربما غلبت عليك شخصيتك الأولى أو آثار الصدمة الأخيرة".

قالت: "لا أريد الخوض في مثل هذا".

قلت لها: "حسنًا.. ولكن عليّ أن أخبرك شيئًا".

سألتني: "ماذا؟".

أجبتها: "المتع زائلة واللذات لم تدم بل بالعكس ربما تعجل بنهايتك أنت شخصيًا، لقد قال فرويد إن كل اللذات تقود إلى الموت باستثناء الجنس".

ضحكت، وقالت: "ماذا لو جمعت بينها جميعا؟".

قلت لها: "أخشى عليك من ذلك، ولكن يشرفني أن تتخذيني صديقًا وليس طبيبًا فحسب، فأنا سعيد جدا بمعرفتك".

قالت: "أنت صديق رائع حقًا".

قلت لها: "إذن اتفقنا، وسأنتظرك في أي وقت تشائين".

استكمل حياة جولتها في المعرض وترحيبها بالضيوف، وهي تشعر بأنها أكثر استقرارًا، ربما لأنها شعرت بأن هناك شخصا آخر يعرف معاناتها، ويمكنها اللجوء إليه في أي وقت، دون أن يغدق عليها بالوعظ والنصح، الذي لا تريد سماعه.

****

شمس: "عذرا أبتي على مقاطعتك، ولكن أنا فخورة بك، فكم هو جميل أن تجد صديق يقبلك بكل أوضاعك وتقلباتك، ينصحك دون أن يجرحك، ينصت إلى صراعات أعماق ذاتك الدنيئة دون أن يوبّخك أو يحتقرك داخله، لأنه يمس ذاتك النقية، ويستوعب تلك الصراعات البشرية".

(١١)

صوت ما داخل حياة أشعرها بالذنب تجاه أحمد بعد ما قالته لي، فقد جنت على حبها الوحيد، وقررت دفن مشاعرها، والاستمرار في نهج حياتها، الذي ربما يودي بها إلى الشعور بالخيانة، لأحدهم يومًا ما، ولكن كيف الفرار من و اقع اعتادت عليه، هي لا تعلم، ولا تعرف لماذا قالت هذا.

هل كانت تلك الكلمات حقًا تعبر عن شخصية أخرى داخلها؟ أم أنها تعبر عن شعور حقيقي داخلها؟ هي لا تريد التفكير في حياتها الأولى وتأثيرها عليها، ولكنها أصبحت تفكر بها أحيانًا، بعد أن أصبحت غير راضية عن نفسها.. إنه الحب الذي يغيّر النفوس إلى الأفضل، ويجعلها أكثر نقاءً، وتسامحًا، فكرت أنها مهما قست عليها الظروف وأساء إليها أحد فإن عليها أن تصفح وتمحي تلك الآثار التي داخلها.

فكرت حياة في أنه آن الوقت لكي تهدأ قليلًا، وترسم حدود لحرياتها، وتكتفي بما لديها من متع، فوجود أحمد أشعرها بأن هناك من يعاني حقًا، ولم يستمتع حتى بمتعة واحدة، هناك الكثير في أحمد يجتذبها إليه، كانت تشعر أنه هدية الله لها، لتستقر معه حياتها، وإن كانت تفعل كل ذلك انتقامًا من رجل خانها فإنها اليوم وجدت رجلًا ربما يستحق الإخلاص.

نظرت إلى أمير الذي آواها في بيته وأمنها عليه، ولأول مرة تفكر في إيجابياته، قبل أن ترى مساوءه، فرأت أن عيبه الوحيد أنه وُلد غنيًا لا يشعر بالفقراء، ولا يقدر إنسانيتهم، وبرغم هذا العيب الخطير، إلا أنها رأت الكثير من المز ايا، فلقد طلب الزواج منها دون أن يعرف عنها شيئا، ولكنها قررت ألا تخدعه مرة أخرى فهي لا تحبه ولا تشعر به البتة.

أحالت نظراتها إلى آسر الذي يتجول بين ركن وآخر في المعرض يصور وينقل الأخبار لزملائه الصحفيين، وبين الحين والآخر يعرّف أحدهم عليها، ليستلقي منها معلومات جديدة، وتصريحات حول نشأتها الفنية، رأت فيه شهامة ورجولة، ولكنها ازدرت خيانته لزوجته، التي رأتها شعورًا قاسيًا وعملًا خسيسًا، ولكنها هي أيضًا اشتركت في ذلك دون أن تدري واستمرت بعد أن علمت، فلا يمكن أن تقذفه باتهامات هي نفسها ارتكبتها.

وقع أمام عينيها أيمن هذا الرجل الذي ساعدها في الوصول إلى حلمها، ولكن أخذ مقابل لذلك من جسدها الذي لم يشعر به مطلقًا، استدرجها ذلك إلى فكرتها المترسخة عن "حيوانية" تقبع في جسد الرجال، ولكنها سرعان ما انتقدت نفسها، فهي أيضا سارت وراء لذاتها، وقبلت أن تخدع رجل وهي تضاجعه.

ألقت نظراتها في محيط المعرض لترى أحمد، لكنها لم تجده، شعرت أن شيئًا ما ينقصها وهو بعيد عنها، ما هذا الشعور الغريب الذي ينتابها مجرد تذكره أو التفكير فيه؟ كأنها تعرفه منذ زمن بعيد واعتادت على رؤيته، هو لم يعطها شيئا ولكنه وهبها أجمل إحساس على وجه الأرض، وأمدها بقوة تجعلها تواجه وتنجح وتحب.

شعرت أنها بحاجة إلى التحدث معه، والنظر في بحور عينيه الدافئة، خرجت من المعرض لتبحث عنه، فسألتها: "عمَ تبحث؟"، لتجب بلهفة: "أحمد".

شعرت وقتها أنها اختار الحب، وفضلت أن تبدأ حياة بسيطة نقية بعيدا عن صراعات تجرفها إلى جحيم مجهول.

شاركتها في البحث عنه، إلا أنها سرعان ما عثرت عليها، فتبسمت لها وقلت: "هيا، اذهبي إليه".

وقفت أتتبع نظراتهما، وأراقب انفعالتها عن بعد، بينما رأيت أمير يقترب فوودت أن أعرقله قليلًا، وتحدثت إليه، عن اندهاشي عندما سمعت بعرض الزواج.

قالي لي: "أهي مو افقة يا عزيزي؟".

قلت: "لا أعلم، هي ستخبرك، ولكن كيف لرجل عملي مثلك أن يتزوج امرأة مجهولة".

قال: أحببتها".

قلت له: "فلتقل تلك الكلمات لغيري، أنت تخبئ شيئًا، وربما تكون طامعًا في شيء منها، وللأسف أنا مضطر لتحذيرها".

قال في لهفة: "أرجوك لا، سأقص عليك كل شيء، ولكن اوعدني ألا تحكي لها".

وعدته بما طلب، وروى لي وهو يشرد بذهنه بعيدًا وكأنه يلهث وراء ذكريات من الماضي: "لقد عرفت حياة في حياتها السابقة، وأحببتها بشدة لكن لم يكن بإمكاني الزواج منها، أو حتى الاقتراب منها، فقد كانت أكثر البنات عفة، عرضت عليها كل ما لدي من حيل إلا أنها كانت تقابلني دوما بالتعنيف، ظللت ورائها ستة أشهر كاملة دون أن تلقي لي بالًا، ولكن علمت أنها متزوجة، وأدركت مدى إخلاصها، وفقدت الأمل، ولكن اليوم أصبح حلمي يتحقق، وهي بين يدي، وعلى خطا من الزواج منها، وأؤكد لك أنني لم أمسها بأي سوء لأنني حقا أحببتها".

لم أستطع أن أمنع نفسي من الانفعال عليه: "كيف لك أن تفعل بها هذا؟ أنت سبب الحادث؟".

أسرع قائلا: "لا والله لقد ساعدتني القدر على الاصطدام بها، ور أيتها رسالة بأن أبدأ حياة جديدة".

سألته: "وهل ستتزوج امرأة متزوجة؟".

قال: "هي لم تعد متزوجة لقد بدأت حياة جديدة باسم جديد وهيئة جديدة".

هو لم يشعر بعد أن حبه الشديد لنفسه جعله يؤذي تلك الفتاة الوحيدة التي أحبها، لم يعرف أن كتمانه و اقعها أحال روحها النقية إلى كائن بوهيمي متستر في ثوب ملائكي برّاق.

تتبعت نظراته وجدتها تتجه نحو أحمد وحياة، وهي تقترب منه وتنظر إليه باشتياق كأنها لم تراه منذ زمن، وتهمس إليه: "لماذا ذهبت؟"

أحمد بنبرة تشاؤم: "شعرت أنه لا قيمة لوجودي، بل ربما أكون سببًا لإحراجك".

حياة: "لا تقل ذلك ثانية، أنت تمدني بقوتي وصلابتي وتضفي عليّ سعادتي، أرجوك لا تتركني وحدي، فأنا في أشد احتياجي إليك".

ابتسم أحمد ليداري قلق ألمّ به.

استكملت حياة مازحة: "إن شئت نتجول قليلًا بعيدًا عن صخب البشر، ولكن لن نطيل حتى لا يهرب مني المعجبين".

يلبي لها طلبها ويسيران حتى يقتربا من المعرض، فيعترض أمير حديثهما، موجها لها: "لماذا خرجتي هكذا هائمة على وجهك؟ الضيوف يتساءلون؟ أبك سوء؟".

حياة بارتباك: "أبدًا، لكني أردت أن أستنشق الهواء النقي".

فجأة انهال أمير على أحمد بكلمات موجعة: "وأنت أيها الصعلوك ما الذي جاء بك إلى هنا؟ وكيف تقف مع سيدتك هكذا وجهًا لوجه؟".

ملامح الصدمة التي سيطرت على وجه حياة أعاقتها عن النطق.

استطرد أمير كلامه معنفًا أحمد: "اغرب عن هذا المكان، وإن كنت تطلب حسنة فعليك اختيار الوقت المناسب".

نظر أحمد إلى حياة والدموع تترقرق في عينيه وكأنه يتهمها بأنها كانت تتلاعب بمشاعره لتسمح لغيرها بإهانته.

تحولت تعبيرات وجه أحمد من الهدوء والألم إلى العزة والرغبة في الثأر لكرامته، ولكن أخلاقه النبيلة منعته من أن يبادله الإهانات، أو أن يرد عليه، أو أن يخرج عليه غضبه وأن يخرج النيران التي تغمره، فذهب هائمًا على وجهه لا يرى أمامه ولا يستمع إلى توسلات حياة التي أسرعت وراءه.

تتبعتهما وأنا أوقن أن شيئًا ما سيحدث يستوجب حضوري، بينما وقف أمير متعجبًا يستنكر هذا المشهد، الذي أعدّه عبثي، ولم يدري ما الذي دفع حياة إلى السعي وراء هذا الذي وصفه بالصعلوك.

علامات الغضب والغل لاحت في وجه أحمد، ما ذنبه لأن يقع فريسة لتلك الطبقة التي لا تشعر بهم، ما قاله أمير جعله ينظر إلى هيأته ويفكر في حاله ويقنط على نفسه لأنه رضي بهذا الوضع، كان عليه أن ينفس عن سخطه للواقع ونقمته على الحياة، وسخطه على الطبقية.

تشعبت بذهنه الأفكار فتطرق إلى القدر الذي بخس به الأرض وأعطى من لا يستحق السلطة والنفوذ ليلعبون بمشاعر ذويه من البسطاء، أليس له الحق في أن يحب لمجرد أنه لا يملك؟! أليس له الحق في أن ينال حقوقه الآدمية؟! أما له الحق في أن يكون رجلًا؟!

بحار التفكير تلك لم تبطئ من حركته السريعة المندفعة التي أوصلته سريعًا إلى كوبري قصر النيل.. وهو يقول: "هذا الكوبري اللعين الذي أوهمنا أننا بشر كغيرنا، تلك المياه البرّاقة التي خدعتنا طوال حياتنا بأنها للجميع، هذا النيل البخيل وتلك السماء القاسية، ليس هناك عدالة كما أوهمونا

ولن تراها البشرية طالما يبتلع النيل الفقراء ليمنح الأغنياء الحياة، طالما ارتضى في مملكته بأن يأكل السمك الكبير الصغير، طالما هي دنيا دنية لا طائل منها".

صرخات تتعالى: "لا أريد تلك الحياة إن كان الأمر كذلك، لا أريد هذا الواقع الأليم، لا أريد أن أتنفس هذا الهواء العنصري، ولا أن أشرب تلك المياه الخدّاعة، سأخلص نفسي من هذا العالم الدامي الذي لا يعرف الرحمة".

لحظات قليلة ضمت تلك الأفكار والصرخات التي دفعته دفعًا إلى الانزلاق إلى مياه النيل دون أن يتمكن أحدهم من نجدته لسرعة اندفاعه، الذي قارب سرعة البرق الذي انطلق معه في السماء، تليه أصوات الرعد المرعبة، واضطراب السحب وتخبطها، وكأن السماء سمعت ما يجول بخاطره وصبت غضبها على الأرض.

اضطراب السماء كان يعبّر عن بركان ألم ألمّ بصدر حياة التي لم تستطع بكل ما أوتيت من قوة أن تلحق به فأطلقت صرخة تهز الرياح ويرتجف لها القلوب.

اندفعت حياة إلى السور محاولة اللحاق به فأمسك بها صلاح ومنعتها قبضات يد المارة، الذين أدركوا مؤخرًا أن هناك شيء مريب يلوح في أرجاء الكوبري.

ظلت حياة تطلق صرخات وآهات وتنهمر الدموع من عينيها كهذا المطر الذي تذرفه السماء هي الأخرى، احمّر وجهها وانطفت لمعة عينيها، وظلت تتأوه وتقول: "أنا السبب دعوني ألحق به، أنا لا أستحق الحياة".

لم تقوى حياة على تلك الصدمة واستيعاب الأحداث المتسارعة، فانهارت وسقطت هامدة على كورنيش النيل.

أسرعت في محاولة إيفاقها ولكن دون جدوى، تحسست النبض، فعلمت أنها لا تزال على قيد الحياة.

أوقفت تاكسي ونقلتها إلى المستشفى ذاك الذي التقيطتها فيه لأول مرة، وهذا اليوم تدخله بنفس الثياب ونفس الحالة ولكن محمولة على ذراعي رجل آخر، توقعت أن تسترد وعيها وذاكرتها.

أدخلتها نفس الحجرة وعلقت لها المحاليل والمهدئات، وجلست جوارها لأطمئنها.

استفاقت حياة صباح اليوم الثاني على صوت آذان الفجر، والتفت حولها لتقع عيناه علي، وتستفهم: "أين أنا؟"

قلت لها: "في المستشفى ولكن لا تقلقي أنت بخير".

سألتني: "ماذا حدث؟"

أجبتها: "لا شيء".

قلت لنفسي: "ربما تكون استردت ذاكرتها وحياتها الأولى عليّ الاستفسار منها".

فسألتها: "ماذا تذكرين؟"

أجابت: "لا شيء".

قلت لها: "حسنًا.. ما اسمك؟"

تاهت حياة قليلا ثم أجابت: "لا أتذكر، لا أتذكر أي شيء".

لقد تكررت لها نفس الحالة على غير المتوقع، فهي لجأت إلى نفس الحيلة، لأن تهرب من و اقعها بالموت، وعندما فشلت في الانتحار، لم يفشل عقلها الباطن في قتل ذاكرتها الأليمة، وفي هذا اليوم عادت لتبدأ حياة جديدة، ولكنها اليوم أصبحت "روح" وليست "حياة".

(١٢)

تراوض الدموع عيون شمس حتى تنهال منها، ويسرع أبيها إلى احتوائها بين ذراعيه، قائلا: "هوّني عليك يا بنيتي، وقصي علي أمرك ربما أفيدك".

تنهار شمس في البكاء، وتقول: "أبي.. أريد أن أرى تلك السيدة، أعطني عنوانها أو تليفونها".

صلاح: "هي لا تحمل هاتفًا، وليس لها عنوان، ولا أعرف مدى قابليتها لمقابلتنا".

شمس: "لديّ شعور بأن تلك السيدة تعرفني، فهمت لماذا كانت تناديني بهذا الاسم، وأريد التحدث معها، أشعر أنها تريد أن تخبرني بأمر ما".

يصمت صلاح، ثم يدعوها إلى الجلوس جواره، ويتحدث إليها: "بنيتي، منذ أن ماتت أمك وأنا أحاول أن أعوضك عنها، أنا صديقك قبل أن أكون أبيك، حدثيني بصراحة وكل شيء مهما كبر له حل، هل أنت تفكرين كما تفكر حياة؟".

تصمت شمس برهة من الزمن، وتجيب بخجل: "ليس بالظبط ولكن تقريبًا...".

ثم تستطرد: "أنا لا أحب خطيبي، وأحب رجلًا آخر لكنه فقير، لن أستطيع العيش معه"، تصمت برهة والدموع تنهال من عينيها ثم تنظر إلى أبيها، وتقول: "ولم أفكر لحظة في أنني قد أدخل في صراع".

يخطف التفكير ذهن صلاح، ولكن سرعان ما يعود ويخفي حالة القلق التي اعترته، ليجيب عليها في هدوء: "حسنًا سآخذك إليها".

تستقل شمس سيارة والدها، وجسدها يرتعد خوفًا، وذهنها شارد، ونظراتها مضطربة، ويديها مرتعشان، وكأنها حقًا ستصعد إلى السحاب.

يقف صلاح عند دار أيتام تسمى "روح"

يدخلان سويًا الدار، تنصت شمس إلى صوت حاني يردد: " تحصَّنتُ باللهِ الذي لا إله إلا هُوَ، إلهِي وإلهُ كُلِّ شيء، واعتَصَمْتُ بربِي وربِّ كُلِّ شيء، وتوكلتُ على الحيِّ الذي لا يموتُ، واستَدْفَعتُ الشرَّ بلا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بالله، حَسْبِيَ اللهُ ونِعْمَ الوكيلُ، حَسْبِيَ الربُّ مِن العباد، حَسْبِيَ الخَالِقُ من المخلوق، حَسْبِيَ الرازقُ مِنَ المرزوق، حَسْبِيَ الذي بيده ملكوتُ كُلِّ شيءٍ، وهو يُجيرُ ولا يُجَارُ عليه، حَسْبِيَ الله وكَفَى، سَمِعَ الله لمنْ دعا، ليس وراء اللهِ مرمَى، حَسْبِيَ الله لا إله إلا هُوَ، عليه توكلتُ، وهُوَ ربُّ العرشِ العظيم".

تمس تلك الكلمات فؤادها، وتشعر بطمأنينة وسكينة، تجعلها تقترب إلى هذا الصوت النابع من شفتي سيدة تتوسط أطفال جالسين في الحديقة، وتتأمل وجهها جيدًا، وتقول لأبيها: "حقا إنها هي"، ثم تقترب منها.

تنتهي السيدة من نجواها، وتتبسم لشمس وصلاح، قائلة: "مرحبًا بكما".

تقول شمس: "يالها من كلمات عذبة، استطاب لها جسدي".

تتبسم السيدة بارتياح، قائلة: "ألا بذكر الله تطمئن القلوب".

تقترب شمس منها: "أريد التحدث معك على انفراد".

السيدة: "حسنًا".

تطلب من أم بديلة أن تأخذ الأطفال للعب.

وتجلس عن قرب منها: "أنا بحاجة إلى الحديث إليك".

السيدة: "تفضلي عزيزتي".

شمس: "لقد قص عليّ أبي قصتك، ولكن تعجبت عندما رأيتك هنا منعزلة عن ملاذ الدنيا".

السيدة: "لا تتعجبي يا بنيتي إنه المصير الذي نحدده بأيدينا".

شمس: "ولكن هي حياتي أيضًا".

السيدة في رفق: "هي حياتنا جميعًا قبل أن يهدينا الله إلى الوصول إليه".

شمس: "ولكن أنا تقريبًا أحذو نفس الحذو إلا أنني مازلت مسمتعة بذلك".

السيدة: "حسنا بنيتي".

شمس: "أنا فرحي خلال شهر، وأحب آخر، عندما قرأت قصتك شعرت أنك تتحدثين عني، وخفت على حبيبي من الهلاك، أو أن أصل إلى هذا الصراع المستوحش".

السيدة: "حسنًا".

شمس: "ألن تعنفيني حتى أغيّر تفكيري وأحذو حذوك؟".

السيدة: "لا أحد على وجه الأرض يستطيع أن يغير فكر آخر، أو أن يختار له، أنت فقط من تستطيعين توجيه نفسك، أو التخلص من نقاط ضعفك، و أنتِ وحدك تتحملين عو اقب أفعالك، وتجنين ثمارها، فللكِ ما تشائين، وسأظل دائمًا فاردة إليك ذراعي، وفاتحة صدري لدموعك في أي وقت، فالرب يغفر، ونحن جميعًا بشر".

شمس: "وهل اللذة ضعف؟".

السيدة: "من أراد امتلاك كل شيء فإنه غالبًا يخسر كل شيء".

شمس: "سأرحل".

تتبسم السيدة لها، فتقول شمس: "سأعود إليك قريبًا".

السيدة: "سأنتظرك، ولكن أود أن أقول لك شيئًا هامًا لك الحرية في أن تقتنيه أو تتركيه".

شمس: "ماذا؟"

حياة: "جميعنا سيذوق لذات الحياة، وسينجذب إليها طالما تقبع داخل كل منا نفس أمارة تدعوه للسعي وراء الشهوة، ولكن حتما ستدفعه النفس اللوامة إلى الصراع الذي يقوده إلى المسار الأخير.

فعليك أن تختاري ما بين الجنة والنار.. فنار اللذات الجسدية تلتهم المتعة بداخلنا، وجنة اللذة الروحية تطفئ نار الشهوة.

اللذة الجسدية دائمًا ما تولد آلامًا نتذوق مرارها عاجلًا أم آجلًا، أما الروحية فهي قدرة فائقة تجعلك تستمتع بالألم".

تتلألأ دمعة في عين شمس إلا أنها تحبسها، وتقول باسمة: "سأعود إليك قريبًا".

تخرج شمس مع أبيها ويوصلها إلى منزلها، ثم يخبرها بأن عليه الذهاب لقضاء بعض الحاجات.

يعود صلاح إلى الدار، ويجلس مع السيدة ويتأمل فيها بتعجب، وهو يسترجع ما بعد حادث فقدان الذاكرة، عندما أدخلت له الممرضة جميع الفحوصات الخاصة بها، واكتشف أنها حامل، وهي لم تذكر قصتها بعد، واضطّر إلى التنقيب في حقيبتها، والوصول إلى مذكراتها تلك.

تعلم السيدة أنه يتعجب من عدم تعنيفها إياها، أو إقناعها بالبعد عن هذا الطريق، فتقول: "لا يمكنني أن أجبرها على شيء، للأسف هكذا خلق البشر، لا يتفهمون الحياة إلا بعض خوض تجاربها الأليمة".

صلاح بتعجب: "ولكن تلك ابنتك!".

السيدة في ثبات: "و أنا كنت حياة".

صلاح: "منذ أن كتبت شمس باسمي، أعددها ابنتي التي حرمني منها الله أنا وزوجتي، وبعد أن توفت في حادث، حاولت أن أعوضها عن حنان الأم الحقيقية والأم البديلة، ولكن اليوم فقط شعرت بما لم أشعر به طوال حياتي، أنا أخشى عليها حقًا، هي بحاجة إليك الآن أكثر من أي وقت مضى".

روح: "ليس بأيدينا شيئًا، اتركها تفعل ما تشاء ستأتي بكامل إرادتها، دعها تختار".

صلاح: "أخاف عليها".

روح: "لا تخف، فإن الله لا يزال بداخلها".

تمت بحمد الله

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

- نشر كل إنتاج إبداعي ذي جودة عالية و أفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة. والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.

لمراسلتنا بشأن نشر الأعمال الأدبية

Gmail arabiclibrary2017@gmail.com

صفحتنا على موقع الفيسبوك

facebook facebook.com/arabiclibrary2017